الفصل الثانى

(عناصر الزهد فى شعر المجان)

تنوعت المضامين التى صاغ منها الشعراء العباسيون موضوعاتهم ، بعد إقلاعهم عن المجون ، وتعددت هذه المضامين بتعدد الشعراء ، واختلفت - أيضا - باختلاف حالاتهم ، وباختلاف دوافع الشعراء إلى التوبة ، وقد تختلف - أيضا - باختلاف حالات الشاعر الواحد .

ومن هذه العوامل المؤثرة فى تنوّع موضوعات الزهد واختلاف أفكارها ، رؤية الشاعر الفكرية ، إستعداده للتوبة ، ومدى تقبله لهذه الحالة الجديدة ، ودرجة اقتناعه بهذا التحول .

ولم تقتصر أبيات الزهد أو التوبة عند الشعراء على فكرة واحدة ، أو مضمون واحد ، يكاد يعرف به الشاعر ، دون غيره من شعراء هذه الطائفة ، ولكن فى حالات كثيرة ، يجمع الشاعر بين مضمون وأكثر من مضامين الزهد ، فى نص واحد ، أو فى نصوص مختلفة ، وهذا لا يمنع من اشتهار بعض الشعراء بمعان خاصة ، وبنغمات محددة ، وأصوات معينة ، كانوا يرددونها كثيرا فى أشعارهم ، ويلحون على تكرارها ، إلحاحا ظاهرا ، فضلا عن معان أخرى ، تعد فرعية بالقياس إلى هذه المعانى المتكررة ، عند هؤلاء الشعراء .

ولقد استمد الشعراء عناصر زهدياتهم ، ومضامين شعرهم فى التوبة والاستغفار ، من مصادر إسلامية ، أساسها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واستمدوها أيضا من دعوة علماء الدين ، ورجال الفقه الاسلامى فى عصرهم ، ومن وعظ الوعاظ ، حتى أضحى لديهم معين خصب ، لا ينفد ، يمدهم بإمدادات فكرية مجدية وخصبة ، يصوغون منها موضوعاتهم الجديدة .

ويأتى فى مرتبة متقدمة من المراتب التى كان لها تأثير فى صياغة هذه الأفكار عند هؤلاء الشعراء فى حالتهم هذه ، خبرة الشاعر فى الحياة ، ومعاناته لها ، ومعاملته مع الدهر ، ورؤيته للزمان ، فقد أمد ذلك كله الشاعر بأفكار زهد إيجابية صادقة ، حين تنبع من تجربته التى عايشها ، ولا تنبع من تجارب الآخرين ، ومن أقوالهم ، فقد عبر الشاعر بصدق عما أحس به ، فبدا مخلصا فى قوله - فى معظم حالاته - حين يصدر فى زهده عن تجربته الخاصة ، وعن معاناته الذاتية .

لم يكن هؤلاء الشعراء فلاسفة أو متكلمين ، ولم يكن هؤلاء الشعراء أئمة مذاهب أو دعاة ، ولم يكن الشعراء من أنصار الفرق الاسلامية أو المذاهب السياسية ، التى كانت شائعة رائجة فى

عصرهم ، حتى يهتموا بالفكرة أكثر من غيرها ، وحتى يخاطبوا العقل على حساب العاطفة ، وحتى يتكلفوا القول ، وليتصنعوا الإحساس ، ولكنهم شعراء خاضوا تجارب خاصة ، وتأثروا بدوافع معينة ، فصوروا تجاربهم ، فى الحالتين ، فى مجونهم ، وفى زهدهم ، وفى إسرافهم على أنفسهم ، وفى توبتهم واستغفارهم .

ومن العسير أن نحمل الأمر أكثر من أن يحتمل ، وأن نرعى عناصر غير إسلامية ، كانت تمد الشعراء بأفكارهم فى توبتهم ، أو أن هناك أفكاراً فلسفية ، تنتمى إلى نظريات معقدة ، فى حاجة إلى توضيح وبراهين وأدلة ، فهم شعراء لم يحملوا راية دعوة تعليمية ، لذلك جاءت زهدياتهم فى أغلب أحوالهم – على هيئة ومضات خاطفة ، يصوغها الشاعر فى أبيات مستقلة ، أو متناثرة ، فى قوالب فنية بسيطة واضحة ، بعيدة عن التعقيد الفكرى ، وعن الإغراب اللفظى ، وعن التعمق الفلسفى ، حتى يفهمها الآخرون ببساطة فهم الشاعر لها ، وتعبيره عنها .

إن هذه الطائفة من الشعراء ، إنشغلت بنفسها ، أكثر من انشغالها بغيرها ، وإن هذه الطائفة من الشعراء ، كانوا يصورون حالاتهم ، لا حالات غيرهم ، وكانوا يستغفرون لذنوبهم ، لا لذنوب غيرهم ، ولم يرغموا غيرهم على هذا الاستغفار ، ولم يجبروا احدا على نهجهم الجديد ، إذا حق لنا أن نسميه مذهبا أو منهجا ، فبدوا ذاتيين غنائيين ، يصورون تجاربهم هم ، لا يدعون تجارب ، ولا يتخيلون ذنوبا لم يرتكبوها ، ولم يتحملوا عبء دعوة ، أو عبء قضية فكرية ، يدعون لها ، وينادون بتأصيلها وانتشارها .

ومن الطبيعى إلا ينهج الشاعر إلى النهج الفلسفى ، ولم ينشغل بالتبرير أو الاستدلال ، أو بالقياس والمنطق ، إنما انشغلوا بالرغبة فى التحول ، وبالصدق الحى ، الذى لا يعرف زيفا أو تكلفا ، فخلت أشعارهم من الموضوعات الغريبة والأفكار المعقدة ، والأفكار الغائمة .

ومن هذه المضامين التى أكثرت هذه الطائفة من الشعراء ذكرها ، فى هذه المرحلة ، وهى مرحلة ما بعد المجون ، التوبة والاستغفار لله ، والتضرع له ، وطلب الرحمة ، والاعتراف بالذنب ، وتحمل المسئولية ، والشعور بالندم والخوف من عذاب الله ، ومنها – أيضا – الصبر والتغنى بالقيم الجميلة والمعانى النبيلة من القناعة وغيرها ، والحزم والجلد ، والصمود أمام نوائب الدهر وكوارثه ، وظلم الظالمين والباخسين الناس أقدارهم ، ومنها تصوير الرحيل ، وبكاء الشباب ، وتصوير الموقف من الشيب ، وتصوير الموت والقبر ، ومنها شكوى الدنيا ، وغالبا ما يلجأ بعض الشعراء إلى الحكم الرصينة ، والأمثال البليغة ، التى تصدر عن تجربة معاشة وواقعية . إلى آخر تلك المضامين العامة التي سيطرت على أشعار التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين .

ومن أبرز عناصر الزهد فى شعر المجان (التوبة) .

١ - التوبة

عبر عنها شعراء كثيرون وصورها بعضهم فى حالتين ، فى المجون ، وفيما بعد المجون ، تذكرها حين كان سادرا فى غيه ، متمنيا التوبة ، محاولا لها ، باذلا جهده فى الخروج مما هو فيه ، وصورها حين خرج من مجونه ، وانتصر على نفسه ، وعلى شياطين الهوى .

والتوبة أولى المراحل التى يمر بها هؤلاء الشعراء بعد أن يقلعوا عن مجونهم ، ويصورون فيها جزءا من ماضيهم ، ويشيرون إلى معاصيهم . والتوبة - أيضا - أصدق المضامين التى يشتمل عليها زهد المجان ، وقد سيطرت على هؤلاء الشعراء غير المجبرين على زهدهم ، وهى فكرة عامة عند غيرهم ، حتى ولو لم يفصحوا عنها بلفظها ، فالشاعر حين يقلع عن مجونه فقد تاب ، وحين يهتم بتصوير معان غير التى كان يهتم بها ، فقد تاب عن النظم فى المجون وغيره .

والتوبة عند الشعراء لم تأت لهم دفعة واحدة ، ولم يتعامل معها هؤلاء المجان التائبين بنمط واحد ، ولم يصورها فى صورة جامدة ، مكررة ، بل كان كل شاعر يتعامل مع التوبة ويصورها حسب استعداده ، وحسب رؤيته ، ويتوقف ذلك على صدقه وعلى الإحساس بها ، والرغبة فيها .

ويمكن أن يقسم شعر التوبة حسب هذا المفهوم إلى عناصر جزئية منها :

(أ) محاولة التوبة .

(ب) التوبة .

(جـ) رفض التوبة والرجوع عنها إلى المجون ثانية .

(د) العودة إلى التوبة مع الايمان والتصديق بها .

أما عن محاولة التوبة ،فقد حاول ذلك شعراء مجان ، وعبروا عن هذه المحاولات فى أشعارهم ، وتمنوا أن يتوبوا وهم فى مجونهم ، وهذا الشاعر أبو العتاهية ، يخاطب نفسه ، ويحاول التوبة . ويطلب من النفس أن تتوب ، قبل أن تعجز عن التوبة ، ويوبخ النفس الآثمة ، المتعلقة بالعبث ، والمحبة للمجون ، فيقول مخاطبا ذاته :

يـا نـفس تـوبى قبـل أن لا تـستـطيـعى أن تـتـوبى
واستغفـرى لـذنـوبـك الـ ـرحمـان غفـار الـذنـوب[1]

---

(١) ديوان أبى العتاهية - ص ٥٦ .

ونراه – أيضا – وهو يعجب من غفلته ، ومن تماديه فى المجون ، فقد تأخرت توبته ، وآن لها أن تحل به ، فيقول :

ولقد عجبت لغفلتى ولغرتى والموت يدعونى غدا ، فأجيب
لله عقلى ما يزال يخوننى ولقد أراه وأنه لصليب
لله أيام نعمت بلينها أيام لى غصن الشباب رطيب[٢]

ولا يرى أبو العتاهية لنفسه عذرا فى تأخر التوبة ، فيسأل النفس متى تتوب ؟

لا عذر لى ! قد أتى المشيب فليت شعرى ! متى أتوب ؟[٣]

ويرى الشاعر أبو العتاهية ضرورة التوبة ، حين كبرت سنه ، ويرى أن الشيب ملزما لصاحبه بالتوبة ، وبهجر المجون ، فيقول :

وأى قبيح أقبح من لبيب يرى متطربا فى مثل سنى
إذا لم يتب كهل لشيب فليس بتائب ما عاش ، ظنى[٤]

ولا يرى معوقا لتوبته ، فالطريق ممهد لذلك ، فيخاطب نفسه محاولا التوبة ، فيقول :

يا ساكن الحجرات ما لك غير قبرك ، مسكن
أحدث لربك توبة فسبيلها لك ممكن[٥]

والتوبة عند أبى العتاهية ، يحدد الشاعر لها وقتا يجب على الإنسان فيه ، أن يقلع عن المجون ، وهو قادر عليه ، ولا يترك التوبة حتى آخر لحظات حياته ، وهى ضرورة فى مرحلة قدرة الإنسان على الاستمرار حتى لا يزداد فى مجونه ، كما أنه يوجبها على ذلك الكهل أو الشيخ أو صاحب الشيب المتصابى ، وهو فى الحالة الأولى من قدرة الماجن على التمادى ومحاولة التوبة أكثر صدقا من حالة الوهن الثانية ، وربما كان الشاعر يصور نفسه ، أو يتخيل آخرين يدعوهم إلى هذه التوبة ، ويتخذ من نفسه النموذج والمثل الذى يضربه للتائبين ، مرغبا فى التوبة منفرا من المجون ومن التمادى فيه .

والتوبة عند بشار تختلف عنها عند غيره من المجان ، فقد كان بشار مجبرا على إعلان توبته ، وكان بشار مضطرا إلى أن يكف عن مجونه ، وعن القول فيه ، ولذلك جاءت توبته مهتزة غير أكيدة ، وإن كان الشاعر صادقا فى تعبيره عن هذا الإهتزاز وعن هذه المحاولات غير المضمونة النتائج لتوبته ، فيصرح بأنه ربما عاد ثانية إلى مجونه ، وإلى غزله وخمره ، فعما

---

(٢) ديوان أبى العتاهية – ص ٤١ .
(٣) ديوان أبى العتاهية – ص ٣٨ .
(٤) ديوان أبى العتاهية – ص ٤١٤ .
(٥) ديوان أبى العتاهية – ص ٤٢٩ .

قريب سوف يهز الكأس رأسه ، وتطرب الجوارى أذنه بغنائها المحبب إلى نفسه ، فيقول بشار :

على الغزلى سلام الله منى ... وإن صنع الخليفة ما يشاء
فهذا حين تبت من الجوارى ... ومن راح به مسك وماء
ان أك قد صحوت فرب يوم ... يهز الكأس رأسى والغناء[٦]

ويرى بشار أن توبته عن الجوارى وعن الخمر ، إنما هى توبة طارئة ، غير أكيدة وغير مستمرة ، وأن عودته إلى غيرها أكثر ضمانا من إستمراره فى هذه التوبة ، ومرجع ذلك أنه كلف بها تكليفا ، ولم تكن صادرة من ذاته .

ومن الشعراء الذين حاولوا التوبة ، وأخذوا يفكرون فيها ، وهم لا يزالون فى مجونهم ، الشاعر ابن المعتز فقد سخر من نفسه الماجنة ، ووبخ ذاته ، فقد أبصر طريق السلامة وطريق الرشد ، ولا يزال يتعامى عنها ، فيقول :

وعرفنى ربى طريق سلامتى ... وبصرنى لكننى قد تعاميت
فأهلكنى ما أهلك الناس كلهم ... صروف المنى والحرص واللهو والليث
ألا رب دساس لى الكيد حامل ... ضباب الحقود قد عرفت وداريت
فعاد صديقا بعد ما كان شائنا ... يعيد الرضى عنى فصافى وصافيت
وزاد التقى مثل الرفيق مقدما ... تروح قبلى سابقا لى وأسريت[٧]

ابن المعتز يعرف حقيقة الأمر ، ويتجاهلها ، ويبصر طريق الرشد ، ويتعامى عنه ، ويرى أن عاقبة ما هو فيه الهلاك ، له ولأمثاله ، ويحاول الشاعر جاهدا الخروج من هذا المأزق ، والنهوض من تلك السقطة ، التى وقع فيها ، حتى يرى النور ، ويحيا حياة الصالحين ، وقد عجز على الانتصار على نفسه ، فهو غير قادر على التوبة ، فيحاول ثانية ، ويقر بذنوبه ، ويعترف بخطاياه ، وكانت محاولات توبته عسيرة ، فلم يكن من اليسير على نفسه هجر المجون ، ولم يكن من اليسير على نفسه أن يزهد فى متاع الدنيا .

إن محاولات الشعراء المجان للتوبة ، يصورون فيها مراحل مجونهم ، ويعترفون فيها بذنوبهم ، ويفكرون فى التوبة ، ويرغبون فى الخلاص ، ويتمنون لو تاب الله عليهم ، بينما هناك محاولات أخرى لشعراء آخرين يرفضون فيها التوبة ، ولا يرغبون فيها ، مع حاجة هؤلاء الشعراء المجان إليها ، فيصرخون فى وجه من يدعوهم إلى التوبة ، ويصرخون علانية بأنهم لا يرغبون فى الزهد ، ولا يتمنون ترك المجون ، ويعلن بعضهم جهارا أنه عاد من توبته إلى المجون ثانية .

---

(٦) ديوان بشار - جـ ١ - ص ١٣٠ .
(٧) شعر ابن المعتز - ٦٣ .

ومن هؤلاء الشعراء الذى صوروا رفض التوبة ، فى مرحلة من مراحل حياتهم ، الشاعر أبو نواس ، فنراه يعترف برفضه للتوبة ، رفضا صريحا ولم يحاول أن يتوب ، ولكنه يعاند ويكابر ، وهو فى ذلك صادق مع نفسه ، غير منافق أو متكلف لأمر لا يقدر عليه ، ولا يرغب فيه ، فلم يكن قد أوتى من حزم النفس القدر الذى يسمح له بأن يتوب ، ويستغفر ، ويندم ويزهد فى مجونه ، فهو لا يزال فى مرحلة ينعم فيها بشبابه ، ويسعد فيها بحياته ، على حسب فهمه للنعيم والسعادة فى الشباب وفى الحياة .

والتوبة عند أبى نواس فى هذه المرحلة المبكرة من مراحل التطور الفكرى (وهى مرحلة الرفض بين وهن الطبيعة وقوة الإغراء) كما يرى العقاد ، فى قوله : « وما كان من دأبه أن يخفى هذه النقيصة فيه لأن إخفاءها يسومه الكبت وهو لا يقوى عليه »[٨] وقد صدق فى وصف نفسه اذ يقول :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطرا بل فقرى يني فكلواذى[٩]

وهو صادق مع نفسه – أيضا – حين يقول معاندا من ينصحه بالتوبة ، مصرا على رفضها :

فـلا والله لا والله لا والله لا أقـصـر[١٠]

ويقول أبو نواس لعاذلة تعذله على رفضه التوبة ، مصورا عدم رضائه بتوبته أو قبولها :

أعاذل أقصرى عن بعض لومى فـراجى تـوبتى عنـدى يخيب
عـررت بتوبتى ولججت فيهـا فشقى اليوم ثوبك ، لا أتوب[١١]

ويعترف أبو نواس كثيرا برفضه التوبة ، ويرى العقاد « أنه يردد هذا الاعتراف على طريقته المطرده فى جميع أحواله ، وهى اتخاذ الفضيلة من الضرورة ، كما يقول الغربيون فى أمثالهم – ، فإذا اعترف بنقيصة لاح من إعترافه كأنها مفخرة يباهى بها المحرومين منها ، وتلك خديعة الطبع الضعيف »[١٢] .

إن الشاعر الذى لا يزال مستمرا فى مجونه ، ماذا يكلفه أن يعترف بهذه الآثام ، فهو قادر على الاعتراف بالذنب ، وهو ضعيف لا يقوى على التخلى عنه ، وهو صريح يواجه آثامه ، عاجز عن الخروج من دائرة مجونه ، وإذا فشل فى تحقيق التوبة ، فما عليه أن يعلن ذلك ، ويصرح برفضه هذا ؟ .

لم يكن أبو نواس جادا فى توبته ، حين أجبره الخليفة على ذلك ولكنه – بالطبع – كان

---

(٨) العقاد – الحسن بن هانى ، ص ١٩٣ .
(٩) ديوان أبى نواس ص ٢١٧ .
(١٠) ديوان أبى نواس ص ١٩٣ .
(١١) ديوان أبى نواس ص ١٧٤ .
(١٢) العقاد – الحسن بن هانى ، ص ١٩٤ .

جادا ، حين اختار توبته بنفسه طائعا ، وكان أبو نواس ، صادقا - أيضا - حين رفض التوبة ، ولم يقبلها .

ولقد تعددت المحاولات التى أعلن فيها أبو نواس توبته ، وأتت فى بعض حالاتها على هيئة صحوات نفسية ، وصرخات ذاتية ، يستجيب لها ، ثم ما يلبث أن يعود منها إلى مجونه ثانية ، بل أكثر مما كان عليه .

وقد كان أبو نواس فى بعض حالات توبته ، متكلفا ، خوفا من الأمين ، فقد كان ملزما بها ، مجبرا عليها ، فيصف تقواه ونسكه ، ولكنه يسخر من هذا كله فى أسلوب ساخر ، يشعر بعدم إيمانه بما يقوله ، ونراه يتهكم ساخرا من توبته ، حين يخاطب الفضل بن الربيع :

فارعوى باطلى وأقصر حبلى ... وتبدلت عفة وزهادة
المسابيح فى ذراعى والمصحـ ... ـف فى لبتى مكان القلادة
وإذا شئت أن ترى طرفة تعجـ ... ـب منها مليحة مستفادة
فأدع بى لا عدمت تقويم مثلى ... وتفطن لموضع السجادة[13]

ويستمر أبو نواس فى سخريته من التوبة التى أجبر عليها ، ويصور ذلك فى مقطوعات عديدة ، ويستخف فى بعضها من الحج ومن أركانه ، ومن التلبية والطواف ، فيحكى ما دار بينه وبين جنان عند الحجر الأسود ، فيقول :

وعاشقان التف خداهما ... عند التئام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما ... كأنما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياهما ... لما استفاقا أخر المسند[14]

ويرى العقاد أن أبا نواس « كان يحافظ على جاهه عند المجان ، ولا جاه له يخاف عليه من أهل الصلاح »[15] .

ومن مضامين شعر التوبة عند أبى نواس ، غير رفضه واستخفافه بها ، التوبة المترددة ، أو التوبة المتردية ، التى ينكث فيها الشاعر وعده ، ويعود منها الى مجونه ، وكثيرا ما انتابت أبا نواس حالات من النسك غير الحقيقى ، ومن الزهد غير المتصل ، من غير أن يكون مجبرا على التوبة ، ومن غير أن يكون راغبا فى إثبات مقدرة فنية . أو تأكيد دلالة على القدرة على النظم فى مجالات النسك والتقوى ، وهذه التوبة المتكررة ، المتقطعة « خواطر ندم تطيف بقلبه ساعة ثم تمحوها داعية من دواعى اللهو فينساها »[16] .

---

(١٣) ديوان أبى نواس ص ١٩٣ .
(١٤) ديوان أبى نواس ص ١٩١ .
(١٥) العقاد - الحسن بن هانىء - ص ١٩٧ .
(١٦) العقاد - الحسن بن هانىء - ص ٥٠٦ .

وتمتزج أبياته فى التوبة المتكررة ، مع أبيات له يمدح فيها ممدوحيه ، يصور فيها نقاء النفس ، وصفاء السريرة ، وحسن الخلق وطيب المعاشرة ، ويصور أنه جدير بصداقتهم وبعطاياهم ، خاصة إذا كان ممدوحه من أهل البر والتقى ، ولم يكن من المعروفين بالاستهتار والعبث ، فيتاجر أبو نواس فى مثل هذه الحالات ، بإعلان توبته ، ليعيش من ورائها ، ولنستمع إليه وهو يمدح ابراهيم بن عبد الله ، ويقول له :

سمى خليل الله كنت ابن صبوة تجاللت عنها ثم قلت لها أسلمى
وقد مت منها يعلم الله توبة تبيت مكان السر منها المكتم[17]

ويمدح الفضل بن الربيع ، بجمعه الدين والدنيا معا ، فى تصوير فنى جاء فيه :

أرى الفضل للدنيا وللدين جامعا كما السهم فيه الريش والفوق والنصل[18]

ومن المعروف أن الأمين قد نهى أبا نواس عن الخمر وعن المجون كافة ، وعن النظم فيهما ، وأن ذلك كان بتهديد المأمون للأمين ، ومعايرته له ، وقد استجاب أبو نواس استجابة سياسية لهذا الأمر ، ولم تكن عن اقتناع ، وقد دفعه ذكاؤه إلى محاولة الاقتراب من الأمين ثانية ، وهو لم يستطع عنه بعدا ، فيجدد الشاعر من نفسه ، ويبدل فى طريقته ونهجه ، ويتخذ لمدحه هذه المرة سبيلا جديدا يصور فيه توبته ، وزهده فى المجون ، ويصرح بأن ما ارتكبه من مجون قد أثقل ذنوبه ، وهو قد أناب وتاب ، وندم على ما فعله ، وذلك حتى لا يرى الأمين فى مدحه ذنبا ، ولا فى اقترابه ما يثير المأمون عليه أو يثير غير المأمون ، فيقول أبو نواس فى ذلك :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك آثام
وتجشمت بى هول كل تنوفة هو جاء فيها جرأة إقدام
فإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام[19]

وما يلبث أبو نواس أن يعود ثانية إلى مجونه ، ويقلع عن توبته ، ولا يرى سبيلا إلى هجر الصبايا والكأس ، كما لا يرى سببا فى أن ينزل الشيب بالرأس ، وهو وإن كبرت سنه ، إلا أنه يرى نفسه قادرة على الشراب ، وعلى غير الشراب ، ويصرح أبو نواس بمعنى جيد من معانى شعر التوبة عنده يقول فيه أن توبته حين تحدث سوف تكون لوجه الله ، ولن تكون للناس ، ولعله يقصد بذلك الخوف من الخليفة ، أو الاستجابة لنصح الناصحين ، وعذل العذال ، فيقول :

---

(١٧) ديوان أبى نواس - ص ٥٠٦ .
(١٨) ديوان أبى نواس - ص ٥٠٠ .
(١٩) ديوان أبى نواس / ٥٠٤ .

كيف النزوع عن الصبا والكأس ... قس ذا لنا يا عاذلى بقياسى
وإذا عددت سنى كم هى ، لم أجد ... للشيب عذرا فى النزول برأسى
قالوا كبرت ، فقلت : ماكبرت يدى ... عن أن تخب إلى فمى بالكأس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن ... لله ذاك النـزع لا للنـاس[٢٠]

ويعترف أبو نواس بذنوبه ، ويصرح بها ، ويرى فى ذلك شجاعة حين لا ينكر مجونه ، ويصد الناصحة التى تنصحه بالتوبة ، ويرفض الشاعر التوبة رفضا قاطعا ، ومن العجب أن نرى أبا نواس يصور المرأة فى صورة الناصحة ، الآمرة بالتوبة ، وكأنها أكثر منه رشدا ، وربما كانت تحبه وتهواه ، وتتمنى أن يكون من غير المجان ، ولعلها من غير الماجنات ، وكانت تريد أن تنقى توبه من الدنس ، وتعيره بمجونه ، وتأبى الاتصال به ، ولا تريد أن تقترن به ، لما عرف عنه من مجون وعبث ، ولعل أبا نواس كان يفضل المجون على العفاف فى تلك المرحلة ، فلم يأبه لقول العفيفات ، ويرفض التوبة رفضا ، ولا يرضى بها ، بالرغم من اليقظة التى يحياها فى ذلك الحين ، فهو يعلم تماما أن التوبة لا بد وأن تأتى ، ويحدد لذلك وقتا ، وهو الشيب ، حين يبدو شيخا عاجزا ، أما وهو لا يزال شابا ، قادرا على العصيان ، ومجالسة الجوارى ، فمن العبث أن يتوب ، ومن العبث أن يستجيب لمن تناديه إلى التوبة ، ويقول أبو نواس وهو يرفض التوبة :

بكرت تبصرنى الرشاد كـأننى ... لا أهتـدى لمـذاهب الأبـرار
وتقول ويحك قد كبرت عن الصبا ... ورمى الزمان إليك بالأعـذار
فـإلى متى تصبو وأنت متيم ... مـتقـلب فى راحـة الأقتـار
فأجبتها إن قد عرفت مذاهبى ... فصـرفت معرفتى إلى الإنكـار
أما العفاف فليس ذا بأوانه ... حتى يلفع بالمشيب عـذارى[٢١]

ويشترك غير أبى نواس فى هذه المراحل التى مر بها فى توبته ، من قبولها مضطرا خائفا من تهديد حاكم ، ومن رفض نصح ناصح له بأن يتوب ، ومنهم الشاعر سلم الخاسر ، ويقول ابن المعتز فى طبقات الشعراء « أنه سمى الخاسر لأنه تنسك ، فبقى فى تنسكه مدة يسيرة فرقت حاله ، فاغتم لذلك ، ورجع إلى شىء مما كان عليه من الفسق والمجون ، وباع مصحفا كان ورثه من أبيه ، فاشترى بثمنه طنبورا ، وقال : ما تقرب أحد إلى إبليس بمثل ما تقربت إليه ، فإنى اقررت عينه »[٢٢] .

---

(٢٠) ديوان أبى نواس / ١٦٢ .
(٢١) ديوان أبى نواس / ١٥٣ .
(٢٢) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٩٩ .

وربما قد فعل ذلك مجونا ، ولم يكن ردىء الدين ، كما يرى ابن المعتز ، بالرغم من أنه تلميذ لبشار بن برد ، فإذا قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج[٢٣]

قال سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور[٢٤]

ولسلم الخاسر مدائح فى يحيى بن خالد ، يشيد بحمايته للدين ، ورعايته للمسلمين ، وغيرته على الإسلام ، فيقول سلم فى يحيى) :

بقاء الدين والدنيا جميعا إذا بقى الخليفة والوزير
يغار على حمى الاسلام يحيى إذا ما ضيع الحزم الغيور[٢٥]

ومن الواضح أن الدافع إلى قول مسلم ينبعث من مدحه ، ورغبته فى أن يجزل الممدوح له العطاء ، ولم يكن الدافع الدينى هو الذى يحركه إلى مثل هذا القول ، وقد رويت لسلم الخاسر بعض الحكم ، ويبدو أنها رويت عنه فى تلك المرحلة التى أعلن فيها توبته . ومنها قوله :

يدبر الأمور مقاديرها ولسلرزق داع إلى أهله
إذا أذن الله فى حاجة أتاك النجاح على رسله
إذا قنع المرء نال الغنى وعرى المطية من رحلة
ولا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله[٢٦]

ولم تكن توبة سلم الخاسر صادقة ، ولم يكن نسكه حقيقة ، فقد استخف بها بعد ذلك ، وعاد إلى مجونه ، ورجع عن توبته ، واستخف بكتاب الله حين استبدله بطنبور ، وربما كان دافعه إلى هذا المزاح والاستخفاف ، والتجربة العابثة التى تلفت الأنظار إليه ، ولكنه عاد إلى حالة من المجون أشد ضراوة من الحالة التى كان عليها قبل أن يدعى النسك وقبل أن يعلن التوبة .

ومن الشعراء العباسيين المجان ، الذين حاولوا التوبة ، ثم نقضوها ورجعوا عنها ، الشاعر ابن المعتز ، وقد أوردنا له مقطوعة يوبخ فيها نفسه الماجنة ، ويفكر فى الموت ، وتسيطر عليه فكرة التوبة تماما ، حين يرى النهاية واضحة أمام عينيه ، وحين يرى الموتى سكانا لا تزاور بينهم فيقول

---

(٢٣) طبقات ابن المعتز ١٠٠ .
(٢٤) طبقات ابن المعتز ١٠٠ .
(٢٥) طبقات ابن المعتز ١٠١ .
(٢٦) طبقات ابن المعتز ١٠٥ .

وسكـان دار لا تـزاور بينهم على قرب بعض فى المحلة من بعض
كأن خواتيما من الطين فوقهم فليس لها حتى القيامة من فض[٢٧]

ويعود ابن المعتز إلى مجونه ، وينقض توبته ، ويقول

يـا قلبى ويحـك خنتنى وفعلتهـا وحللت عقـدة تـوبتى فنقضتهـا
فالآن آيس من خلاصك بعد ذا عصيت التقى نفسى فكيف أطعتها[٢٨]

ومن شعره فى نقض التوبة ، والرجوع إلى المجون ثانية ، ما قال فيه

قد تبت من توبتى بعد الصلاح وكم مسافر فى التقى والنسك قد رجعا
مات الهوى ثم أحيـاه بطلعتـه فاليوم يبدع فى قتلى له بدعا[٢٩]

الشاعر ابن المعتز يتوب عن توبته ، وكأنما أخطأ حين تاب ، ويلوم نفسه على التوبة ، وبدأ صريحا فى تصويره لحلاوة التوبة الأولى ،وما فيها من صلاح وتقى ونسك ، ومع هذا يرجع عنها إلى المجون ، وينقضها ، ويعلل ذلك حين يستشهد بغيره من النساك التائبين ، الذين رجعوا عن نسكهم إلى مجونهم .

إن هذه الحالة من حالات التوبة ، وهى نقضها والرجوع عنها يفسرها أصحابها ، ومنهم ابن المعتز ، بأن ظروفا معينة دفعتهم إلى الرجوع عن توبتهم ، يظل التائب على توبته إلى أن يرى طلعة الحبيب مرة أخرى ، بعد غيبة طويلة ، يدعوه إلى ما كان عليه ، فيرى الشاعر نفسه مدفوعا إلى الانقياد للحبيب ، والحقيقة أن هؤلاء المجان ، الزاهدين بعد مجونهم ، الراجعين عن توبتهم ، كانت توبتهم طارئة غير أكيدة ، ووقعت فى مرحلة متقدمة من مراحل عمرهم ، وهم لا يزالون قادرين على المجون ، وربما كانت توبتهم غير صادقة ، وكان نسكهم غير حقيقى ، ومن الطبيعى أن تتكرر مثل هذه الحالات ، ما دام الشاعر غير ملتزم بها ، حتى يصل إلى توبته الحقيقية التى لا رجعة عنها ، ولا ردة لها ، وذلك إنما يأتى بعد أن يتخذ الشاعر لنفسه موقفا واضحا يؤمن به ، ويقتنع ، وهذا التائب الذى يرجع عن توبته لرؤية وجه حبيبه ، أو لسماعه الغناء ، وتذكره مجالس الخمر ، ودعوة الأصدقاء إليها ، أو لوم اللائم أو اللائمة على توبته ، فيستجيب له أو لها ، إنما توبته صحوة طارئة ، صادقت فترة معينة من فترات حياة هذه الطائفة من الشعراء المجان .

وتمر توبة الشاعر بمناجاة ذاتية ، يطلب الشاعر من نفسه التوبة ، فقد رأى الوقت مناسبا لذلك ، ورأى أن الظروف التى تمر به تعجل بتوبته ، فقد شعر بالملل من المجون ، وأحس أن

---

(٢٧) شعر ابن المعتز ١٦٣ .
(٢٨) شعر ابن المعتز ٧٣ .
(٢٩) شعر ابن المعتز ١٧٢ .

المصائب المتعاقبة التى حلت به لا يخفف من حدتها المجون ، ولا يضيع مرارتها العبث ، بل التوبة هى الضرورة ، حتى والشاعر فى رجولته القادرة ، ونرى ابن المعتز يطلب من نفسه التوبة ، فقد بلغ الأربعين من عمره ، وذهب الشباب ، وكدر العمر ، وحان أوان التقى ، فيقول

ذهب الشباب وكدر العمر ... فى صبوة وعلا بك الأمر
حتى بلغت الأربعين فهل ... حان التقى لك وانجلى الشكر[٣٠]

والمجان العباسيون فى توبتهم ، يحاولون ويتوبون ، ثم ينقضون توبتهم ، ويرفضونها ، ويعودون إليها فى نهاية الأمر أكثر صدقا وإيمانا واقتناعا ، وهى مرحلة التوبة الصادقة ، التى أعلن عنها بعض الشعراء المجان ، حين زهدوا فى مجونهم ، زهدا لا ردة له ، ولا رجوع عنه ، وربما كان السن أو العجز أو عوامل أخرى مسئولة عن صدق هذه المحاولة الأخيرة الصادقة من محاولات التوبة ، فيعزف الشاعر عن الشرب ، ويهجر الغوانى ، يزهد فى فنون المجون جميعها ، فقد أحس بالنهاية أضحت قريبة ، وما عليه إلا أن يتوب قبل أن يفوت الآوان ، فالتوبة أصبحت حقيقة لا سبيل إلى انكارها .

يقول الشاعر ابن المعتز فى توبته

أعاذل ليس سمعى للملام ... عزفت عن الغوانى والمدام
وبنت من الشباب فليس منى ... وآخر كل شىء لا نصرام
رأيت الدهر ينقضى كل يوم ... قوى حبل البقاء وكل عام[٣١]

وترتبط هذه المرحلة الأخيرة من مراحل التوبة بالاحساس بقرب النهاية ، وبعدم القدرة على الاستمرار فى المجون ، وترتبط عادة بظهور الشيب ، فنرى الشاعر أبا العتاهية ، يدعو المجان الى التوبة بعد أن تعددت النوائب ، وكثرت الخطوب ، ووضحت آثار الدهر وتقلباته ، فى ذوائب رأس الشعراء ، فيقول

ألا لله أنت متى تتوب ... وقد صبغت ذوائبك الخطوب[٣٢]

وقد لا يلتزم كل الشعراء المجان بهذه المراحل من مراحل التوبة ، وقد يقلع عن مجونه دفعة واحدة ، دون محاولة أو تجربة أو رفض ثم قبول ، والشاعر حين يرفض التوبة ، ويرفض الاستماع إلى من يدعوه لها ، يكون غارقا فى المجون ، فيأبى ترك حياة اللهو ، فنرى ديك الجن قبل أن تنزل به محنته التى أشار إليها البحث سابقا ، وجعلته يعتزل الحياة يرفض التوبة ، ويرفض هجر الكأس والغناء والجوارى الحسان فيقول الديك :

---

(٣٠) شعر ابن المعتز ٧٣ .
(٣١) شعر ابن المعتز ١٦٢ .
(٣٢) ديوان أبى العتاهية / ٣٥ .

يقولون : تب والكأس فى كف أغيد وصوت المثانى والمثالث عال
فقلت لهم : لو كنت أضمرت توبة وعانيت هذا فى المنام بدا لى[٣٣]

والمجان الرافضون للتوبة ، لم تنبعث التوبة بالطبع من ذواتهم ، بل أمليت عليهم من خارجهم ، وجهها إليهم الناصحون العقلاء ، ومن هؤلاء الرافضين للتوبة ، الشاعران السرى الرفاء والسلامى ، يقول السرى الرفاء رافضا النصح :

ألذ العيش إتيان الصبيح وعصيان النصيحة والنصيح
وإصغاء إلى وتر ونای إذا ناحا على زق جريح[٣٤]

ويرى العيش سكرة ، يصحو منها ويهجر اللذات ، فيقول السرى الرفاء :

ما كان ذاك العيش إلا سكرة رحلت لذاذاتها وحل خمارها[٣٥]

ويرى السرى زوال السرور ، ويرى أن النائبات للإنسان بمرصد ، فيقلع عن صبوته ، ويهجر المجون ، ويدعو إلى العيش الصالح ، فيقول :

أعاذل إن النائبات بمرصد وإن سرور المرء غير مخلد
إذا ما مضى يوم من العيش صالح فصله بيوم صالح العيش من غد[٣٦]

أما الشاعر السلامى ، فيرفض التوبة ، ويضيع وعظ الوعاظ ، ويخيب الرجاء فيه ، وكثيرا ما عاد عن توبته والعود أحلى وأطيب - فى رأيه - فيقول السلامى

يقولون لى تب لا تعود لمثلها وهيهات ضاع الوعظ عندى وخيبا
وكم قبلها مت بالسكرة مرة وعدت فكان العود أحلى وأطيبا
كذا أبدا أما ترانى مجررا ذيولى سكرا وكسيرا متشعبا
ولكن على الأحرار حمل مؤونتى إذا ذهبت بى نبوة الدهر مذهبا
ولما جفانا من الفنا وصاله واخلف عام كان يرجى وأجدبا
رهنا وصرفنا ولعبا منادلا وحليا ومذخورا إلينا محببا
رأيت ابنتى قد أحرزت بعض حليها فانشدت تعريضا لها وتشببا
سلبت الجوارى حليهن فلم تدع سوارا ولا طوقا على النحر مذهبا[٣٧]

والشاعر حين يكون رافضا التوبة ، وغير مستعد لتلبية دعوة الناصحين يضحى من أجل

---

(٣٣) ديوان ديك الجن / ١٨٥ .
(٣٤) الثعالبى : يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر جـ ١ ص ١٨٨ .
(٣٥) الثعالبى - اليتيمة جـ ٢ ص ١٦٠ .
(٣٦) الثعالبى - اليتيمة : جـ ٢ ص ١٧٠ .
(٣٧) الثعالبى - اليتيمة : جـ ٢ ص ٤٣٨ .

ذلك بالنفس والمال ، ويضحى بكل ما فى حوزته وحوزة أسرته ، فلقد باع السلامى متاعه ، وباع حلى ابنته ، ليعود إلى مجونه ، فهو غير مستعد لهجر المجون ، رافضا للتوبة ومخيبا للوعظ .

والشعراء المجان حين يعلنون توبتهم الجادة ، بعد محاولات ورفض وعودة وانتكاس ، يودعون اللذات واللهو والصبا ، ويعلنون عدم العودة إلى المجون ثانية ، فنرى أبن المعتز يودع المجون فى قوله

سلام على اللذات واللهو والصبا سلام وداع لاسلام قدوم[٣٨]

وابن المعتز يثنى أعناق الهوى ، ويودع الغوانى والصبا ، ويسلك سبيلا غير سبيلهم ، ويعلن توبته ، هاجرا المجون ، زاهدا فيه ، فيقول :

يا صاح ودعت الغوانى والصبا وسلكت غير سبيلهم سبيلا
وثنيت أعناق الهوى نحو القلى ورأيت شاو العاشقين طويلا
فربطت جاشا كان قبل منفرا وقتلت حبا كنت فيه قتيلا
ناجيت واعظة النهى فاستعجلت ألفاظ غيك وانثنى مغلولا
عهدان ماتا للأوانس والصبا فاندبهما لا تندبن طلولا
بدلت من ليل الشباب بمفرقى صبح النهى أحبب بذاك بديلا[٣٩]

والشاعر أبو نواس رفض النصح ، ورفض التوبة - كما رأينا - وأعلن استمراره فى مجونه ، وكان صادقا فى رفضه ، وصادقا فى قبولها ، وإن لم يكن صادقا فى تصنعه لها ، وإن بدا صدقه فى إعلان خوفه من الأمين ، واطاعته لأمره ، ونراه يستخف من الذين يدعونه إلى التوبة ، ويرى أن البعد عن الخمر يورث هما لا يمكن تحمله ، ولا يقتنع بما يردده الناصحون من كونها تورث ذنبا وهما ، بل زاده ذلك تمسكا بها ، وكيف يرفضها والله - سبحانه وتعالى - لم يرفض اسمها ، بل جاء ذكرها فى كتابه الكريم ، كما ان أمير المؤمنين صديقها ، فيقول أبو نواس :

ولاح لحانى كى يجىء ببدعة وتلك لعمرى خطة لا اطيقها
لحانى كى لا أشرب الخمر أنها تورث وزرا فادحا من يذوقها
فما زادنى اللاحون الا لجاجة عليها لأنى ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها
فنحن وان نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا فى الدهر إلا رحيقها[٤٠]

---

(٣٨) ديوان ابن المعتز : ٥١٣ .
(٣٩) ديوان ابن المعتز ص ٤٩٧ .
(٤٠) ديوان أبى نواس ص ٣١٢ .

ويذم أبو نواس الناصحين له ، الداعين إلى التوبة ، ويرفضها ، ويخاطب إبراهيم النظام ، وكان مر به وهو يناظر فى الوعيد ويقول : « من مات مرتكبا لكبيرة غير تائب منها ، لم يعف الله عنه وخلده فى النار ، فخاطبه أبو نواس بقوله :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك اشياء
لا تحظر العفو إن كنت أمرا حرجا فإن حظركه بالدين أزراء[41]

وفى نهاية الأمر ، يندم أبو نواس على مجونه ويصحو ضميره ، ويطلب العفو من الله سبحانه وتعالى ، فإن ذنوب الشاعر قد تعاظمت ، فيقول :

يا رب إن عظمت ذنوبى فلقد علمت بأن عفوك أعظم[42]

ويتوب توبة صادقة لا يرجع عنها ، وقد دفعه السن والعجز إلى هذه التوبة الحقيقية ، فقد شعر بالفناء يدب فى أعضائه عضوا عضوا ، فيتذكر طاعة الله ، ويندم على ذنوبه ، ويعترف بها ، ويتوب عنها ، طالبا الصفح والعفو والمغفرة من ربه ، فيقول أبو نواس :

دب فى الفناء سفلا وعلوا وأرانى أموت عضوا فعضوا
ذهبت جدتى بطاعة نفسى وتذكرت طاعة الله تضوا
هف نفسى على ليال وأيام تمليتهن لعبا ولهوا
قد أسانا كل الاساءة فالله هم صفحا عنا وغفرا وعفوا[43]

ويتخلى أبو نواس عن موقفه الأول من التوبة ، فيقبل النصيحة ، ويعمل بها ، ويستجيب لنداء العقل .

ومن الملاحظ فى شعر التوبة عند المجان العباسيين ، أنهم لم ينصاعوا لأوامر غيرهم ، بل ظلوا سادرين فى غيهم لا يستمعون إلى نصح الناصحين إلا حين يستجيب العقل إلى ذلك ، وحين يصيروا عاجزين على المجون ، فيتوبون ، ويخلصون التوبة .

ويشتمل شعر التوبة عند المجان العباسيين على بعض المضامين الفكرية التى أشارت إليها تلك النماذج التى استعرضها البحث ، لهذه الطائفة من الشعراء العباسيين ، وأهمها المحاولة ثم الرفض ثم النكوص والاستخفاف وأخيرا التوبة الصادقة .

ومن هذه المضامين - أيضا - رفض نصح الناصح ، وتبرير المجون ، والاقتناع به ، وإعلان الضعف أمامه ، وعدم القدرة على هجره .

ومن هذه العناصر - أيضا - تصوير الشعراء طمعهم فى رضا الله سبحانه وتعالى -

---

(٤١) ديوان أبى نواس ص ٧٦ .
(٤٢) ديوان أبى نواس ٥١٢ .
(٤٣) ديوان أبى نواس ٥١٧ .

وطمعهم فى مغفرته وعفوه ، كما اشتملت هذه الأبيات فى التوبة على إظهار الندم والآسى ، والإحساس بالذنب ، والإعتراف به ، ولم ينكر أحدهم ماضيه ، ولم يتبرأ شاعر مما أرتكبه ، ولم يغير أحدهم حقيقة مجونه ، ولم يحاول شاعر أن يخفف من حدة الذنب ، ومن خطورة العقاب ، بل اعترفوا بالمجون وبالماضى كل الماضى ، وكأنهم كانوا يودعون حياة المجون بتذكرها ، وبالحديث عنها ، وكأنهم كانوا يشعرون بنوع من الرضا ، وبلون من السعادة ، حين يصرحون بالمجون وبالماضى ، فهم يجابهون الأمر بشجاعة ، وباعتراف صادق ، حتى أن بعضهم بالغ فى تصوير خوفه ، واهتز كثيرا فى ندمه وكاد يبكى فى شعره .

والشعراء المجان فى توبتهم يصورون عواطفهم الذاتية ، وشعورهم الخاص ، ويجسدون معان وأفكارا يحسون بها ، لا احساس غيرهم ، ولا عواطف غير عواطفهم ، كما أنهم لم يفلسفوا الأمور ، ولم يعتمدوا فى أشعار توبتهم على أفكار مذهبية ، أو على أطر فلسفية ، فلم يحملوا أشعار توبتهم أكثر مما تحتمل ، ولم يرهقوا طاقاته الابداعية ، وإمكانياته الجمالية بأفكار جافة ، وآراء جامدة ، فى حاجة إلى تفسير أو تعليل ، ولم يسلكوا مسالك غير مباشرة ، فيها التواء أو تعقيد ، بل بدوا فى غاية من الصراحة فى إعتراضهم وفى تجسيم ذنوبهم ، وفى إعلان ندمهم وخوفهم وطمعهم فى الرضا الإلهى .

ولقد جاء شعر التوبة عند المجان العباسيين - فى معظم أحواله - فى ثنايا قصائدهم ، وكثيرا ما كان فى مدائحهم ، فاستبدلوا المجون بالزهد ، واستبدلوا معان العبث واللهو بمعان روحية سامية ، فكان شعر التوبة هو ذلك الجزء الذاتى فى القصيدة التى يعبر فيها الشاعر عن نفسه ، ويخلو فيه الشاعر إلى ذاته ، يستمع إليها ، ويعبر عما فيها ، فى بساطة ووضوح .

ومن هذه المضامين والأفكار التى اشتمل عليها شعر التوبة عند المجان العباسيين تعليل طائفة كبيرة منهم للمجون ، وتبريرهم لماضيهم ، بجهل الشباب وطيش الشباب وعنفوانه ، ومصاحبة رفقاء السوء ، والعصبة الماجنة التى دفعتهم إلى ذلك ، وهم إذا دخلوا المجون برغبتهم ، فإنهم يتوبون عنه برغبتهم - أيضا - .

ولقد تصنع بعضهم التوبة فى بعض فترات حياته ، خوفا وخشية عقاب حاكم ، أو امتثالا لأمر مسئول ، ولكنهم كانوا صرحاء حتى فى تصنعهم ، فكانوا يستخفون ، وكانوا يعللون هذه الحالة بأمر خارجى عن ارادتهم ، وليست بدافع داخلى من ذواتهم ، بل كانوا يصرحون بالرغبة فى العودة إلى المجون ، وزوال المؤثر الذى يعوق هذه العودة ، كما رفض معظمهم التوبة ، حين لم يكونوا مقتنعين بها ، وسخطوا من الوعاظ ، وذموا الناصحين ، وعادوا إلى مجونهم ، وتركوا التوبة مرارا ، ولكنها محاولات أو صلتهم - بلا شك - إلى التوبة الحقيقية ، بعد أن ذاقوا حلاوة الايمان ، وبعد أن تدربوا على القدرة على هجر المجون ، وعلى الزهد فيه ، فكانوا أكثر صدقا واستعدادا فى قبولها فى آخر الأمر .

وجاءت أشعار توبة المجان العباسيين بسيطة سهلة الألفاظ ، واضحة المعانى ، قريبة الأخيلة ، صريحة فى تركيب صورها الفنية ، عبر الشعراء بأدواتهم الفنية عن معانى التوبة فى قوالب ميسرة جميلة ، ولعل شعر التوبة فى زهديات أبى نواس يعد من أصدق هذه الأشعار التى أعلن فيها المجان العباسيون توبتهم ، فقد كان صادقا ، ويرى د . طه حسين « أنه كان محبا للأخلاق ، وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب ، فلم يكن أبو نواس مؤثرا للصدق ، لأنه صدق ، لم يكن واعظا ولا ناسكاً ، لم يكن حكيما يبشر بالمحكمة ، أو فيلسوفا يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعرا يصدق فى شعره ، ويتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب ، كان يحب الصدق حبا عمليا ، وكان يحب الصدق حبا فنيا ، ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين ، أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفنى »[٤٤] .

ولعل صراحة وحدة المجون اللتان عرفا بهما أبو نواس كانتا سببا وجيها لصدقه فى زهده ، وصدقه فى توبته ، فعلى قدر مجونه جاءت توبته ، فكلما تخيل الشاعر ما صنع فى مجونه ، ازداد خوفا وقربا وترقبا للعقاب الذى سوف ينزل به ، فسالت دموعه ، وسالت الفاظه صدقا ورقة تحاول أن تعتذر عما قدمت يداه فى ماضيه .

ولم يكن أبو نواس فى زهدياته ، يحاول أن يثبت مكانة فنية ، أو ينافس أبا العتاهية أو غيره من شعراء الزهد وشعراء التوبة ، فلم تشغله المكانة الفنية ، أو المنزلة الأدبية ، بل انشغل بالقدرة على التعبير الصادق وإعلان التوبة الحقيقية .

إن حالات التوبة التى يمر بها المجان العباسيون تمثل حالات صدق ، سواء كان هذا الصدق وقتيا متقطعا ، أو دائما مستمرا ، ولكنها تحمل صدقا حين يقول الشاعر شعرا فى توبة ، غير مدفوع الى قوله ، وغير مجبر على نظمه . وربما كان بشار يمر بحالة من هذه الحالات ، وهو فى عنفوان مجونه ، حين تاب واستغفر ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى مجونه ، ونسى توبته ، وتجرد من استغفاره ، ولا يمنع هذا تمتعه بقدر من الصدق على الأقل لحظة نظمه أبياته فى التوبة والاستغفار ، التى جاء فيها :

أتــوب إليــك من السيئــا ت وأستغفـر الله من فعلتى
تنــاولت مــا لم أرد نـيله على جهل أمرى وفى سكرتى
ووالله والله مــا جئـتــه لعمــد ومــا كــان فى همتى

---

(٤٤) د . طه حسين - حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٩٤ .

وإلا فمت إذن ضائعا وعذبنى الله فى منيتى[٤٥]

ولا يطلب من الشاعر فى توبته غير صدقه مع نفسه وصدقه فى فنه ، ليرضى النفس ، ويرضى الذوق ، فعبر المجان التائبون عما بداخلهم فى بساطة ، ولم يجنح الشعراء إلى التضمين من القرآن والحديث أو الاقتباس من أقوال مأثورة أو أمثال سائرة ، لم يحملوا توبتهم غير إحساسهم الذاتى ، وغير ندمهم وإعترافهم ، وربما شمل شعر التوبة اعتذارا ، فنرى الماجن التائب يعتذر عن إسرافه فى مجونه . حتى يمكن أن يعد شعر التوبة نوعا من الاعتذار الذاتى الروحانى بين عبد وربه .

لقد كان شعر التوبة عند المجان العباسيين من أبرز عناصر زهدياتهم ولعل التوبة جاءت فى تلك المرحلة المبكرة من حياة الشاعر الزاهدة ، ولعلها المرحلة الانتقالية بين المجون والزهد ، أو هى بمثابة المعبر الذى ينتقل الماجن عبره من مجونه إلى زهده ، ولذلك شملت على الحالتين ، واشارت إلى الفترتين ، اعترافا بالماضى ، ورغبة فى المستقبل الروحانى فجاءت التوبة سابقة لكثير من العناصر الأخرى التى اشتملت عليها اشعار المجان حين أقلعوا عن مجونهم ، وزهدوا فيه ، ومنها الشيب والبكاء على الشباب ، والقناعة ، وتصوير الموت والقبر والحكمة والمثل وشكوى الدهر وغيرها من المضامين التى اشتملت عليها اشعار المجان بعد إقلاعهم عن المجون ، واعلانهم الزهد فى حياتهم .

---

(٤٥) ديوان بشار ١ / ٣٦ .

٢ - الشباب والبكاء عليه ، والشيب والاتعاظ به

تناولت الدراسة الشيب بالحديث فى الفصل السابق ، وتتناولها بالحديث أيضا فى هذا الفصل ، وذلك فى صورة تختلف عن الصورة الأولى ، فقد تعرض البحث للشيب على أساس أنه دافع من الدوافع التى كانت مسئولة مسئولية مباشرة وأكيدة عن تحول عديد من المجان إلى الزهد ، ويتعرض البحث فى هذه المرة للشيب محاولا استخلاص أهم عناصره ، وأبرز مضامينه التى تتكون منها صورة الشيب فى زهد المجان .

فالشيب دافع هام من دوافع زهد المجان ، والشيب عنصر غنى من عناصر زهديات المجان - أيضا - .

وتعود أهمية الشيب إلى كونه أبرز دوافع الزهد الحقيقية عند المجان العباسيين ، وهو أعظمها تأثيرا ، وأشدها وضوحا فى زهدياتهم ، أو فى أشعار التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين ،ويتسم شعر الشيب بالصدق الحقيقى فى التعبير وفى التصوير ، وغالبا ما يكون الشاعر فى الشيب ، قد زهد فعلا ، وقد تاب حقا ، أجبره الشيب على الزهد ، ودفعه إلى التوبة ، حتى يعد الصدق من أكثر ألوان التعبير فى الشيب عن غيره من الدوافع الأخرى .

وقد يستطيع الشاعر أن يعود إلى مجونه ، ويرفض توبته ، وقد يستطيع أن يتحرر منها ، ويتحلل من الإلتزام بها ، ولكنه مع الشيب لا يستطيع منه فكاكا ، ولا يستطيع له رفضا ، ولا يستطيع أن يهجره إلى شبابه ، ثم يعود إليه ثانية ، ولم يكن الشيب عاملا وقتيا ، أو مؤثرا غير دائم أو مستمر ، يزول بزوال المسبب ولكن الشيب إذا نزل لا يرحل ، وإذا جاء لا يرد ، والإحساس معه إحساس لا ينتهى ، فلا مناص من التسليم به ، ولا مفر من قبوله ، رحب به الشاعر أو نفر ، مدحه أو ذمه .

وحين يتحدث الشعراء عن الشيب ، يتحدثون عن الشباب ، وكأن الشىء بنقيضه يذكر ، وكأن الشيب زاد إحساس الشعراء بشبابهم ، فالحرمان أبلغ فى التعبير ، وأكثر صدقا فى التصوير ، ولقد اختلفت رؤية الشعراء المجان للشيب ، فاختلفوا بين نافر ومرحب ، وذلك إنما يعود لحالة الشاعر النفسية ، ويعود - أيضا - إلى استعداده الداخلى ، لهذا التحول الهام والخطير فى حياة البشر ، فبدأ الشيب عند البعض عجزا ، مرتبطا بالسن وبالشيخوخة ، ومرتبطا بالعمر الحقيقى للشاعر ، فيكون الماجن مل مجونه ، ورغب فى الزهادة ، وتعلل بشيبه ، مستعدا لأن يحيا حياة أخرى ، تختلف عن ماضيها .

ويرى بعض المجان فى الشيب واعظا وناصحا وناهيا ، لا يرد وعظه ولا يرد نصحه ، فيشعرون معه بالتعقل والتدبر ، بينما يربطه آخرون بالموت والفناء ، والرحيل وآخر المسير ، فترى صورهم مختلفة حسب اختلاف تناولهم للشيب ، وحسب استعدادهم ومدى التفاؤل أو التشاؤم الذى يتمتع الشاعر بأحدهما ، أو يشقى بأحدهما - أيضا - فتتفاوت صور الشعراء ، بين السلبية والايجابية .

ويستمد بعض المجان حين كبروا ، أقوالهم فى الشيب من تجاربهم الخاصة ، ومن إحساسهم الخاص ، ومن شعورهم بمعاناتهم الذاتية ، وساعدهم فى ذلك التصوير والتعبير بعض الأقوال التى رددها الحكماء والبلغاء عن الشيب ، فاشترك النثر مع الشعر فى رسم لوحة الشيب ، واستمد الشعراء من الكتاب أقوالا نظموها واستفادوا منها فى تصويرهم ، ولعل التجربة كانت واحدة عند أصحاب الشعر والنثر ، وإن اختلف كل فريق منهما فى التعبير عنها نثرا أو نظما .

ومن تلك الأقوال المأثورة فى العصر العباسى عن الشيب ووصفه ما سجله صاحب زهر الآداب ومنها « ارتاض فلان بلجام الدهر ، وأدرك عصر الحنكة ، جمع قوة الشباب إلى وقار المشيب ، وأسفر صبح المشيب ، وعلته أبهة الكبر ، والشيب حلية العقل وشيمة الوقار »[٤٦] ولم تقتصر هذه الأقوال على معان استمد منها الشعراء أفكارهم بل أمدتهم أيضا بكثير من الصور البيانية والجمالية الخصبة ومنها : « الشيب زبدة مخضتها الأيام ، وفضة سبكتها التجارب وأنه سرى فى طريق الرشد بمصباح الشيب ، وعصى شياطين الشباب ، وأطاع ملائكة المشيب »[٤٧] .

كما أسهمت هذه الأقوال فى عقد المقارنات بين الشباب والشيوخ ، فقالوا « الشيخ يقول عن عيان ، والشاب عن سماع ، فى الشيب استحكام الوقار ، وتناهى الحلال ، وميسم التجربة وشاهد الحنكة »[٤٨] .

وكما عبرت هذه النصوص النثرية على الشيب وفضلته على الشباب ورجحت به ، عبرت غيرها عن ضد هذه المعانى ، فربطت الشيب بالموت ، وبالخوف ، وجعلته أحد الميتتين ، فجاء فيها « الشيب مقدمة الموت والهرم ، والمؤذن بالخرف ، والقائد للموت ، الشيب رسول المنية ، والشيب نذير الآخرة ، والشيب أحد الميتتين ، والشيب أول مواعد الفناء »[٤٩] .

وفى الشباب أقوال أخرى ، سجلها الحصرى القيروانى فى زهر الآداب ومنها « فلان اطاع

---

(٤٦) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب - جـ ٢ ص ٨٩٩ .
(٤٧) الحصرى - زهر الآداب - ٢ / ٨٩٨ .
(٤٨) المصدر السابق - ٢ / ٨٩٩ .
(٤٩) المصدر السابق - ٢ / ٨٩٩ .

الشباب وغرته ، وأجاب الصبا وشرته ، وجر إزار الصبا ، وأذال ذيول الهوى ، وركض فى ميدان التصابى ، وجنى ثمرات الملاهى ، وهو فى سكرى الشباب والشراب ، وبين نزوات الشباب ونزعات الشيطان ، وقد لبى داعى هواه وانغمس فى لجة صباه ، وقد خلع عذاره ومقوده وألقى إلى البطالة باعه ويده ، وهو لا يعرف الصحو ، ولا يفارق اللهو ، لا يفيق ولا يذكر التوفيق »[٥٠] .

لقد وجد الشعراء أنفسهم أمام رصيد ضخم من المعانى والأخيلة عن الشيب وعن الشباب ، فاستعانوا بها فى أقوالهم وفى تصويرهم ، فساعد ذلك على التجديد فى الفكرة ، وساعد على الإبتكار فى الصورة ، فلم يشعر القارىء بالملل من رتابة القول ، ومن تكرار التصوير ، خاصة حين يكون الموضوع واحدا وهو موضوع الشيب .

وهذه الأقوال المأثورة هى الأخرى لم توضع للبلاغة والبيان ولكنها فى المقام الأول ، كانت حصيلة تجارب عديدة خاضها أصحابها ، وكانوا قد أوتوا قدرا من التعبير والتصوير ، فعبروا وصورا ، ولعلنا نلحظ تشابها عظيما بين أقوال الكتاب وأقوال الشعراء ، فالشيب هو الشيب ، وإحساس الانسان كاتبا كان أم شاعرا ، وإذا صور الشعراء شبابهم وبكوا عليه ، وترحموا على أيامه ، وصورا شيبهم وما حل بهم واضطروا إلى الترحيب به ، فإنهم كانوا صادقين فى تصوير شبابهم ، وكانوا مجبرين على الترحيب بالشيب ، حتى يمكن أن يعد زهد هؤلاء المجان حين نزل بهم الشيب زهدا إجباريا ، لا مفر منه ، ولا خيار فيه ، ولا بديل عنه ، فلم يكن هناك من حل آخر ليختاره الشاعر ، فإن الشيخوخة مرحلة فى حياتهم ، وفى حياة الإنسان عامة ، تختلف بالضرورة عن مرحلة الشباب ، فإذا كان الشباب مرحلة القوة والسعى وراء الملذات ، وتلبية الرغبات الشرسة فى طبيعة الانسان ، فإن الشيخوخة مرحلة الضعف والتسليم والتفكير والتأمل ، وتلبية النزعة الروحانية « وطبيعة الانسان فى دور الشباب أن ينصرف إلى الماديات ، ويصرف نشاطه فى تحصيلها ، فيلهيه التكاثر عن التأمل ، وتطغيه القوة فلا يبحث عن العلل ، وحين يقف على عتبة الشيخوخة ويحس بالضعف ، يقف موقف المتأمل فى الحياة لطبائع الناس ، ويقيس الأشياء والنظائر ، ويقابل بين النقيض ونقيضه ، ويجمع بين السبب والنتيجة ، ويحاول أن يتبين العلائق بين الأشياء ، ويتخذ لنفسه قواعد يسير عليها فى حياته ، تعوضه عما فقده من قوة الشباب وحيوته ، ويتطرف بين التفكير فى علاقة الى علاقة ، فيحاول ان يفهم الحياة بعللها ، ولا يلبث أن يجد نفسه قد زهد فى الدنيا »[٥١]

وما أكثر من زهدوا بغير شيب !، وما أكثر من شعروا بالشيب وهم لا يزالون فى شبابهم !،

---

(٥٠) المصدر السابق - ١ / ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٥١) د . محمد مجيد السعيد - الشعر فى عهد المرابطين - ٢٦٧ .

فلم يكن الشيب هو الدافع الأوحد فى زهد المجان ، وكان زهدهم فى شيبهم أقل صدقا من زهدهم مع دوافع أخرى ، ولم يكن الشباب كله قوة ، ولم يكن الشيب كله ضعفا وعجزا ، إلا إذا قيس بمقياس القوة الجسدية وغيرها من متعلقاتها ، فكثيرا ما كان فى الشباب ضعف اخلاقى ، وضعف فكرى ، وكثيرا ما كان فى الشيب قوة روحانية كما عبر الشعراء عن ذلك فعبروا عن تحكم الانسان فى لذاته وتفهمه لعواقب الأمر ، وعن نتائج الأشياء المتصارع حولها ، حين تتضح الرؤية ، وصور - أيضا - أن ما حدث لهم فى شبابهم إنما كان بفعل الإنبهار بالزائل من متع الحياة .

إن زهد المجان فى شيبهم ، قد نبع من مجموع التجارب التى خاضها هؤلاء المجان فى شبابهم ، وما رسوها بأنفسهم ، بحكم حياتهم الطويلة ، بينما ينبع زهد المجان بفعل دوافع أخرى غير دافع الشيب من عقيدة وفكر ، ومن إيمان واقتناع وتعمق أكثر وتناول أوضح للأمور وإستفادة من التيارات المنتشرة حولهم والتى تدعوهم إلى هذا التحول ، وتزينه لهم .

ومن الطبيعى أن زهد الماجن وهو قادر على مجونه أكثر صدقا من زهده وهو عاجز فى شيبه عن الاستمرار فيما كان عليه فى الماضى .

ومن أهم الأفكار والمضامين التى تناولها المجان حين أقلعوا عن مجونهم ، هو بكاء الشباب ، فقد تطرق كثيرون منهم إلى هذا المعنى ، بعد أن ولى عنهم الشباب وأدبر ، ونزل بهم الشيب وأقبل .

وقد نعجب حين نرى الشاعر أبا العتاهية يبكى الشباب ، ولكننا بعد أن وقفنا على مجونه قبل زهده ، يزول هذا العجب ، وربما اندفع إلى الرغبة فى بكاء الشباب ليفعل مثلما فعل غيره ، وليبكى مثلما بكى غيره ، وذلك بالرغم من زهده الذى عرف به فى شعره ، لم يفته أن يصور شبابه ، ويترحم عليه ، ولكنه يصبغه بصبغة خاصة ، تحمل طوابع أبى العتاهية الفكرية والفنية معا .

يقول أبو العتاهية وهو يبكى الشباب :

لهفى على ورق الشباب ... وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب ، وبان عنى ... غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا ... ب ، وطيب أيام التصابى
إنى لآمل أن أخلد ... والمنية فى طلابى[٥٢]

ولقد شجعت أبيات أبى العتاهية بعض الباحثين على الشك فى زهده ، حين صرح بأنه لم يزل

---

(٥٢) ديوان أبى العتاهية - ٦٨ .

متعلقا بالشباب ، باكيا غصونه الخضر الرطيبة ، ولياليه الجميلة ، والشاعر يأمل فى طول البقاء ، ويأمل فى الخلود ، ولكن الموت يتعقبه ويطلبه .

ونرى هذا الشك فى ديوان أبى العتاهية فى خبر يروى عن عكرمة لشيخ من أهل الكوفة جاء فيه : « دخلت مسجد المدينة ببغداد ، قبل أن يبيع الأمين محمد بسنة ، فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد الأبيات السابقة ولكن هل زهد فى شبابه ؟. لا .. »[٥٣] .

ولعل ما أصاب أبا العتاهية فى زهده من حنين إلى المجون ، يماثل ما أصاب المجان فى مجونهم ، من حالات طارئة يفيقون فيها إلى أنفسهم ، فيعلنون توبتهم ، ثم يرجعون عنها ، فلم يكن بكاء الشباب من عناصر زهد أبى العتاهية الواضحة ، ولكنه معنى طارىء يعود بعده أبو العتاهية إلى زهدياته وإلى ما عرف عنه فيها من سمات خاصة به .

ومن جميل ما قاله أبو العتاهية فى البكاء على الشباب ، قوله :

بكيت على الشباب بدمع عينى ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شبابى ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
فيا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب[٥٤]

ويمكن أن يعد حديث أبى العتاهية عن الشباب والبكاء عليه ، أشبه بحديثه عن القناعة ، والزهد فى المال مع ما عرف عنه من بخل وحرص . وكلها أمور فى حاجة إلى نوع من التبصر فى مذهبه والتحقق من إتجاهه الفنى .

لقد اتخذ أبو العتاهية الزهد مذهبا ومنهجا فنيا ، فاهتم باثبات المقدرة الفنية ، أكثر من اهتمامه بالمقدرة الفكرية والعقيدية ، ورغب فى أن يكون صاحب اتجاه زهدى دون منازع ، وقد خشى من أبى نواس ، حين وجد له أبياتا فى الزهد ، تمنى أن تكون له ، وكان من الأولى ما داما مؤمنا بالزهد داعيا له ، أن يسعد حين يجد غيره من الشعراء يزهدون أو يدعون ذلك ، ويدعون له ، ولعل تلك الأبيات التى تجرد فيها أبو العتاهية من زهدياته فى شيبه ، وصرح بها بالحنين إلى الشباب كانت أكثر صدقا من غيرها من المواقف التى أكثر الشاعر من تصويرها ، فانقطع إليها حتى صار مكررا لنفسه ، مرددا لقوله فى كثير من مواطن زهدياته .

ويدعو أبو العتاهية إلى الاتعاظ بالشيب ، ويرى أن الحياة يوما يشب فيها المرء ، ويوما يشيب ، فيقول :

وما هو إلا على نقصه ... فيوما يشب ، ويوما يشيب
ألا يعجب المرء من نفسه ... إذا ما نعاها إليه المشيب[٥٥]

---

(٥٣) ديوان أبى العتاهية / ٦٨ .
(٥٤) ديوان أبى العتاهية / ٧١ .
(٥٥) ديوان أبى العتاهية / ٥٠ .

ويتعجب أبو العتاهية من الماجن فى شيبه ، فيقول :

إلى كم تـدافـع نهى المشيـ ـب يا أيها اللاعب الأشيب[٥٦]

ويعلل أبو العتاهية زهده ، بعدم تحقيق أغراضه والوصول إلى مآربه ، مما دفع البعض إلى الاعتقاد فى أن فشله فى حب عتبه هو الدافع إلى هذا التحول ، فقد أعلن أبو العتاهية أنه يهرب من الدنيا إلى الدين ، وإن كل بغية فى الحياة لا تأتى إلا بالهم والتعب ، وإن كل لذة لابد وأن يعقبها ندم ، خاصة إذا كانت غير مشروعة ، فيقول أبو العتاهية فى ذلك :

طلبتك يا دنيا ، فأغدرت فى الطلب ... فما نلت إلا الهم والغم والنصب
فلما بـدا لى أننى لست واصلا ... إلى لـذة ، إلا بأضعـافهـا تعب
وأسـرعـت فى دينى ، ولم أقض بـغيـتى ... هـربت بدينى منـك ، إن نفـع الهـرب[٥٧]

وممن بكوا شبابهم الشاعر أبو الشيص ، فنراه يكرر ما جاء فى شعر غيره من الشعراء الذين بكوا الشباب ، وترحموا عليه ، فيصور الشباب رطب العود ، أخضر الغصن ، ويصور نفسه وقد انتهى عن مجونه ، لما دعاه المشيب إلى ذلك ، فاضطر مجبرا ، ولو كان بمقدوره لعاش ماجنا حتى آخر حياته ، فيقول أبو الشيص باكيا شبابه فى شيبه :

فهل لك يا عيش من رجعة ... بـأيـامـك المـونقـات الحسـان
فيـاعيشنـا ، والهـوى مـورق ... له غصن أخضر العـود دان
لعـل الشبـاب وريعـانـه ... يسـود مـا بيض القـادمـان
وهيهات يا عيش من رجعـة ... بـأغصانـك المـائـلات الـدوانى
لقد صدع الشباب ما بيننـا ... وبينـك صدع الـدواء اليمانى
عليـك السـلام فكم لـيلة ... جمـوح وليـل خليـع العنـان
أصيب الـذنـوب ولا أتقى ... عقـوبة مـا يكتب الكـاتبـان
فـاقتصـرت لمـا نهانى المشيب ... واقصـر عن عـذلى العـاذلان
وراجعت لمـا أطـار الشبـاب ... غرابان عن مفرقى طائـران[٥٨]

ويتفق الشعراء فى بكائهم على الشباب ، وفى الترحم عليه ، فلم نجد من يذمه بينما تختلف نظرتهم إلى الشيب ، بعد أن توحدت تلك النظرة إلى الشباب ، فنرى بعضهم يرحب بالشيب ،والبعض الآخر يذمه وينفر منه ، أما فى تصويرهم للشباب فجاءت كلها فى قوالب واحدة ، تصور أيامه المونقة وأوقاته الهانئة ، ولياليه الحسان ، وهى صورة جميلة عامة ، محببة

---

(٥٦) ديوان أبى العتاهية / ٥١ .
(٥٧) ديوان أبى العتاهية / ٤٩ .
(٥٨) ابن المعتز – طبقات الشعراء / ٧٩ .

دائما ، ولم نجد بينهم من يتعجل الشيب ، أو من يمل من الشباب ، ولكنهم يبكونه حين يولى ، ويستغفرون لذنوبهم فيه ، من غير ذم أواستهجان .

إن الشعراء المجان فى بكاء الشباب ، يلقون عليه بأطيب السلام ويودعونه خير وداع ، ويتمنون دوامه ، أو رجوعه ثانية ، وهيهات أن يعود ، فيعترفون بذنوبهم ، ويقرون بزهدهم ، ويستجيبون لنداء المشيب ، حتى أن أبا العتاهية يرى أن روائع الجنة فى الشباب ، فى قوله :

إن الشباب حجة التصابى روائع الجنة فى الشباب[٥٩]

بينما يعارض نفسه فى موضع آخر حين يرى أن الشباب يفسد الانسان ويفسد عقله ، فيقول :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للعقل أى مفسدة[٦٠]

ومن المضامين التى صاغ منها الشعراء صورة الشيب ، عقد مقارنات خفيفة ورشيقة بين الشيب والشباب ، تصور النقلة بين الحالتين ، وتصور النقلة من المجون إلى التوبة ، وفيها يلوم الشاعر نفسه – أحيانا – حين ترغب نفسه فى التمادى فى مجون الشباب ، فيصور إنذار الشيب له ، ونهيه عن التمادى فى المجون ، وفى مثل هذا المعنى ، يقول ابن المعتز :

وقف الشباب وأنت تابع غيه لا ترى لنذير شيب قد نهى[٦١]

وفى شيب أبى نواس ، هجر لمنازل المجون ، ولمجالس الغوانى التى كان يتردد عليها فى شبابه ، فيقول :

منازل قد عمرتها يفعا حتى بدا فى عذارى المشيب[٦٢]

إن هذه الفكرة وهى المقارنة بين الأمرين ، والجمع بينهما فى صورة واحدة ، اشترك فيه غير شعراء المجون ، وفى غير العصر العباسى ، اشترك فيها شعراء لم يعرف عنهم مجون أو لهو ، كما عرف عن هذه الطائفة التى خضعت للبحث .

ومن هؤلاء الشعراء – على سبيل المثال – الشريف المرتضى ، وهو الشريف الإمام على بن الحسين بن موسى المعروف بالمرتضى ٣٥٥ – ٤٣٦ هـ شقيق الشريف الرضى ، وسيرته معروفة ، وأخباره فى علمه وأدبه ونبله وديانته مشهورة مدونة ، فى تضاعيف كتب التاريخ والعبادات والشريف المرتضى من الشعراء الذين أحسنوا النظم فى الشيب والشباب ، وله أشعار معروفة فى مصنفه طيف الخيال .

---

(٥٩) ديوان أبى العتاهية / ٤٩٦ .
(٦٠) ديوان أبى العتاهية / ٤٨٩ .
(٦١) ديوان ابن المعتز جـ ١ / ١٨٩ .
(٦٢) ديوان أبو نواس / ٨٥ .

أن موضوع الشيب والشباب من الموضوعات التى جذبت الشعراء إليها ، دون النظر إلى المجون أو إلى سيرة الماضى ، فهو يؤكد حقيقة ، ويصور حالة . يصور تلك النقلة الطبيعية الحتمية من الشباب إلى الشيب ، ومن المعروف أن الشريف المرتضى وأمثاله من الشعراء الذين تناولوا الشيب والشباب اختلفت وجهات نظرهم فى تناول هذا الموضوع عن وجهات نظر المجان ، فهم لم يفخروا بذنوبهم ، ولم يجاهروا بمعاصيهم ،ولم يصرحوا بآثامهم فى جرأة وعلانية ، بل صوروا الشيب والشباب فى عبارات عفيفة ، بعيدة عن مضامين المجان التى صوروها فى أشعارهم .

ومن الجميل أن نرى أمثال هؤلاء الشعراء غير المجان ، يصرحون بنقاء ماضيهم ، وبطهارة سيرتهم ، ويفخرون بأنهم لم يفجروا ولم يفسقوا ، ولم يرتكبوا إثما ، ويفخرون بأن أخلاقهم لم تكن معيبة ، فيقول الشريف المرتضى فى الشيب والشباب :

وقالوا : لا جناح ، فقلت كلا ... مشيبى وحده فيكم جناحى
مشيب شن فى ثغر سليم ... كشن العر فى الإبل الصحاح
سقى الله الشباب الغض راحا ... عتيقا أو زلالا مثل راح
ليالى ليس لى خلق معيب ... فلا جدى يذم ولا مزاحى[٦٣]

ويحدد بعض الشعراء فى صورة الشيب عمرهم الحقيقى ، فيذكر عدد السنين التى عاشها ، حتى يبرر شيبه ، ويصور أنه قد شبع من المجون ، وأن هذا العمر الذى وصل إليه ، يحول دون استمراره فى مجونه ، وأبو العتاهية من الشعراء الذين أشاروا إلى عمرهم فى بعض أشعاره ، ومنها قوله :

عشت تسعين حجة ... فى ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى ... فخذى منه أو دعى[٦٤]

ويقول الشريف المرتضى فى سن الستين :

تقول لى إنما الستون مقطعة ... بين الرجال ووصل الحز والغيد
إن الحفاظ وبيضتى فيه لا معة ... خير من الغدر لو جربت فى سودى[٦٥]

وللشريف المرتضى أشعار غير قليلة فى الغزل وفى طيف الخيال ، وفى تصوير هجر المرأة ، وكلها تتسم بالعفة ، بعيدة عما يخدش الحياء ، ولا يعد الغزل العفيف مجونا ، ولا يعتبر ذكر المرأة ، وتصوير الحنين إليها مجونا ، وعلى هذا فإن بكاء الشباب ، وتصوير ما ألم بالشاعر بعد

---

(٦٣) ديوان الشريف المرتضى – ت : رشيد الصفار – مراجعة د . مصطفى جواد – الحلبى ١٩٥٨ – القسم الأوزل ص ٥ .
(٦٤) ديوان أبى العتاهية / ٢٦٨ .
(٦٥) ديوان الشريف المرتضى – القسم الأول – ٣٠٦ .

المشيب ، لا يضعه فى مرتبة الشعراء المجان ، الذين تغنوا بالخمر ، واستهتروا بالدين ، واستخفوا بالقيم الأخلاقية .

ويصور الشريف المرتضى هجر المرأة له بعدما نزل المشيب برأسه ، فيقول :

أمن شعر فى الرأس بدل لونه تبدلت يا أسماء عنى وعن ودى
فإن يك هذا الهجر منك أو القلى فليس بياض الرأس يا اسم من عندى[٦٦]

ويصور الشريف المرتضى صورا أخرى لا تضعه فى طائفة المجان ، حتى ولو شرب السلامة من ريق المحبوبة ، وقطف الورد من خدها ، مثلما جاء فى قوله :

سقانى السلافة من ريقه واقطفنى الورد من خده
وشاع غرامى به فى الأنام فما لى سبيل إلى جحده[٦٧]

ويرى بعض الشعراء فى الشيب نذيرا بالفناء والهلاك ، ويرى آخرون فيه علامة تعقل ، وأمارة اتزان ، وحياة جد يملؤها الوقار والحكمة .

والشاعر أبو العتاهية من أول الشعراء الذين رأوا فى الشيب نذيرا بالموت ، ونبع هذه الرؤية من منهجه فى الحياة ، فيقول فى الشيب والموت :

رأيت الشيب يعروكا بأن الموت ينحوكا
فخذ حذرك يا هذا فانى لست ألوكا[٦٨]

أما أبو نواس ، فيرى فى الشيب راميا بالدواهى ، ولعل ذلك فى أول عهده به ، والشاعر لا يزال متعلقا بمجونه ، ولم يكن قد نجح بعد فى التخلص من هذا المجون ، فيقول :

انقضت شرتى فعفت الملاهى ورمى الشيب مفرقى بالدواهى[٦٩]

ولم يتعظ أبو نواس بالشيب ، بل ظل فى مجونه ، ويصرح بذلك حين يرى أن شيبه لم يعرف وقارا أو اتزانا ، والمفروض أن يكون الشيب فيه تعقل ووقار أما شيبه فهو بغير وقار ، فيقول :

يقولون فى الشيب الوقار لأهله وشيبى بحمد الله غير وقار[٧٠]

ويبدو أن الشعراء المجان كانت نظرتهم إلى الشيب ، فى أول عهدهم به تختلف مع رؤيتهم له ، بعد أن اعتادوا عليه ، وأصبح حقيقة مؤكدة ، فالشاعر لا يرحب بالشيب ، بل يتذمر من نزوله ، وينفر منه ، ثم لا يجد بدا فى تقبله ، والترحيب به ، كأمر واقع ، فيمدحه بعد ذم ، ويرحب به بعد نفور ، ويقبل عليه بعد إدبار ، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر أبو الشيص الذى

---

(٦٦) ديوان الشريف المرتضى / ٢٩٨ .
(٦٧) ديوان الشريف المرتضى / ٢٩٨ .
(٦٨) ديوان أبى العتاهية / ٣٠٩ .
(٦٩) ديوان أبى نواس / ٩٩٠ .
(٧٠) ديوان أبى نواس / ٢٧٠ /

رأى فى الشيب صدا وإعراضا من النساء ، ثم رأى الشيب يعوضه عن ذلك بالخلق الحميد ، ولكن بئس ما يعوض به المعتاض ، فهو غير راض عن هذا التعويض ، فيقول :

حسر المشيب قناعه عن رأسه ... فرميته بالصد والإعراض
اثنان لا تصبو النساء إليهما ... ذو شبيبة ومخالف الانقاض
لا تنكرى صدى ولا إعراضى ... ليس المقل على الزمان براضى
حلى عقال مطيتى لا عن قلى ... وأمضى فإنى يا أميمة ماضى
عوضت عن برد الشباب ملاءة ... خلقا وبئس معوضة المعتاضى[٧١]

ويرى أبو العتاهية فى الشيب ناعيا لشبابه ، كما ينعى الخراب الأنس ، فيقول :

والشيب ينعى إلى المرء الشباب كما ... ينعى الأنيس إليه المنزل الخالى[٧٢]

ويرى أبو العتاهية فى الشياب وعظا وحكمة ، فيرحب بقدومه فى قوله :

أهلا وسهلا بالمشيب مؤدبا ... وعلى الشباب تحية وسلام[٧٣]

أبو الشيص يهجر الغناء والنساء ، ويهجر الكأس والشراب ، حين ينزل به الشيب ، فأحكمته التجربة ، وتخلق بخلق الآدب ، فيقول :

وأحداث شيب يفترق عن البلى ... ودهر تهز الناس أيامه كلب
فأصبحت قد نكبت عن طرق الصبا ... وجانبت أحداث الزجاجة والطرب
وكفكف من غربى بشيب وكبرة ... وأحكمنى طول التجارب والأدب[٧٤]

ويرى أبو نواس فى الشيب واعظا ، وناصحا ، يهدى المرء إلى سواء السبيل ، فى قوله :

لله در الشيب من واعظ ... وناصح لو قبل الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
واسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
من اتقى الله فذاك الذى ... سبق إليه المتجر الرابح[٧٥]

ويمدح شيب الفضل بن الربيع ، ويرى فيه أبهة وعظمة ، فيقول :

وعظتك واعظة القتير ... وعليك أبهة الكبير[٧٦]

---

(٧١) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٧٥ .
(٧٢) ديوان أبى العتاهية / ٣٥٩ .
(٧٣) ديوان أبى العتاهية / ٤١٧ .
(٧٤) ابن المعتز - طبقات الشراء / ٨٢ .
(٧٥) ديوان أبى نواس / ٩٧٨ .
(٧٦) ديوان أبى نواس / ٩١٨ .

وقد دفع الشيب أبا العتاهية إلى رثاء نفسه ، حين يقول لابنته رقية فى علته التى مات فيها : « قومى يا بنية فاندبى أباك بهذه الأبيات » وجاء فيها :

لعب البلى بمعالمى ورسومى وقبرت حيا تحت ردم همومى
لزم البلى جسمى ، فأوهن قوتى إن البلى لموكل بلزومى[٧٧]

ويتضح من هذه النماذج السابقة ، اختلاف وجهة نظر الشعراء إلى الشيب ، واختلاف الشاعر نفسه فى رؤيته للشيب ، فقد ينفر منه ، ثم ما يلبث أن يرحب به ، وكثيرا ما يذكر الشعراء فى وصفهم للشيب أخبارا من شبابهم، ويصرحون بماضيهم، وآخرون لا يصرحون، كما اشترك فى تصوير الشيب الشعراء المجان وغير المجان، مما جعل الشيب صورة عامة من صور الشعر العربى، ولم نر شاعرا يذم الشباب، وكثيرا ما وجدنا من يذم الشيب، ويتقبله حين لا يرى مفرا من قبوله له، حتى يعد موضوع بكاء الشباب والترحم عليه، والترحيب بالشيب وتقبله، من أبرز الموضوعات فى شعر المجان بعد إقلاعهم عن المجون، وبعد إعلان توبتهم.

وقد جاء هذا الموضوع فى مقدمة موضوعات شعرهم ، لاشتراك معظمهم فيه ، وباعتباره من أهم الدوافع التى دفعتهم إلى التوبة والاستغفار ، ومن الملاحظ على زهدهم أو توبتهم بأثر الشيب أنها توبة لا ردة لها ، سواء قبلها الشاعر أو لم يقبلها ، ولم يدفعه إلى الزهد فى شيبه غير عجزه ، فكان مجبرا على توبته ، وكان مضطرا إلى أن يكيف حياته ، ويكيف شعره حسب الحالة الجديدة التى أصبح فيها .

وقد حاول الشعراء التجديد فى المعانى ، والابتكار فى بعض الصور التى صوروا فيها الشيب ، ولكنها فى النهاية لم تخرج عن دائرة واحدة ، وعن أنماط معينة ، ورددها معظم الشعراء ، وهى الترحيب أو النفور ، والنصح والتأدب فى الشيب ، والترحم على أيام الشباب ، ولعلهم كانوا يشعرون بنوع من السلوان فى تصوير شبابهم والبكاء عليه ، وفى تذكرهم لغوايات الصبا ، ومجون الماضى .

وقد رأى بعضهم فى الشيب نذيرا بالموت والهلاك ، ورأى آخرون الحياة الجديدة المتعقلة المتزنة المملوءة بالتقى والعمل الصالح .

ونادرا ما جاء موضوع الشيب فى مقطوعات مستقلة ، بل جاء كله على هيئة أبيات متناثرة أو متتالية ، تمثل عنصرا من عناصر عمل الشاعر الأدبى ، ولعل تصوير بعض الشعراء لذلك الشيب الذى لا يرتبط بالعصر الحقيقى من أبدع ما صوره ، ومن أجزل ما نظموه ، حين شابوا فى شبابهم ، وحين شابوا دون إن يبيض شعر رأسهم ، فشابت قلوبهم ، وشابت وجوههم ، وشاخت آمالهم ، وتحطمت أمانيهم . فزهدوا وتابوا .

---

(٧٧) ديوان أبا العتاهية / ٤٠٢ .

٣ - الشكوى من الدهر، وذم الدنيا

إن تناقض الحياة وتقلبها ، وتغير الأيام وتبدلها ، دفع بعض الشعراء إلى الاستعانة على هذا التحول والتغير بالشرب والمجون ، ودفع أخرين منهم إلى التأمل والتبصر ، وإلى اتخاذ الزهد مرفأ أمينا يلجأون إليه ، بعدما خبروا الدهر وعركوا الزمان ، وأدركوا أن السرور لا يدوم ، وأن كل نعيم لا محالة زائل ، فأضحى إقلاعهم عن المجون حقيقة واجبة ، وإعلانهم التوبة أمرا لا مناص منه ، فاقتربوا من الزهد درجات ، وباعدوا الخطى بينهم وبين حانات المجون ، فكان الزهد درعهم الواقى من ضربات الزمان ، وحاميهم من صروف الدهر ومزالقه . فاندفعوا يشكون من الدهر ، ويذمون الدنيا ، ويذمون المطمئنين لها ، المنخدعين بها ، واندفعوا - أيضا إلى الشكوى من الناس ، وإلى ذم الإخوان .

وقد تعددت المحن التى صادفت الشعراء المجان ، وأثرت فيهم ، وكانت سببا مباشراً فى زهدهم وفى توبتهم ، وقد اختلفت حدة هذه المحن ، واختلف - أيضا - استعداد الشاعر لتقبلها ، وإظهار تحمله لها ، وصموده أمامها ، وكان الدهر فى نظر هؤلاء هو المسئول الأول ، فصوروا شكواهم فيه ، وأعلنوا تمردهم عليه ، وكأنهم يحاربونه ، بعد أن صار قضيتهم .

وقد رأى بعض الشعراء فى الدنيا تقلبا وغدرا وتحولا ، ورأى بعضهم فيها جورا أو اضطرابا ، فذموها واشتكوا منها ، واستخلصوا بعد ذلك ، موقفا معينا ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة الحكمة التى يستفاد منها الآخرون ، ولا يصل إلى مرتبة العظة التى تؤثر فى غيرهم ، فقد كانت تجاربهم ذاتية فردية خاصة ، تحمل سمات شخصية لا تمثل موقفا عاما ، أو رؤية شمولية .

إن الحكم التى وردت كثيرا فى زهد المجان ، تختلف بالطبع عن شعورهم فى الشكوى من الدهر ، وفى ذم الدنيا ، فالحكمة حصيلة تجربة ، والحكمة خلاصة موقف ، تقدم للأخرين ، لتهديهم الطريق السوى ، ولكن الشعراء فى شكواهم من الدنيا ، صوروا موقفا معينا ، يصل منه إلى أن يصدر حكمه على الزمان بالغدر ، وعلى الحياة بالتقلب ، وعلى الدنيا بالخيانة وعدم الأمان .

وصورا الأيام وهى تتبدل من السرور والنعيم إلى الشقاء والحزن ، بفعل هذه المحنة التى نزلت بهم ، وكان بعضهم يتعامل مع الدهر وكأن الدهر يعانده ، وكان بعضهم ينظر إلى الدنيا بنظرة ملؤها الشؤم بينما تمالك الآخرون أنفسهم ، وتحدوا وصمدوا ، وبدت نظرتهم إيجابية ، حتى فى تقديرهم لغدر الزمن ، وتقلب الأيام .

وقد تطرق بعض الشعراء فى شكوى الدهر وذم الدنيا إلى تصوير أحوال البشر المتقلبة الغادرة هى الأخرى ، تقلب الزمن وغدره ، فذم بعضهم بعضا ، وصوروا نقائص أخلاقهم ، وتباين مواقفهم ، وغدر سلوكهم ، الذى كان من آثاره فى بعض الأحيان نزول المحنة بشاعر من الشعراء المجان .

وتنسحب رؤية الشاعر للدهر ، على رؤيته للبشر جميعا ، فحين يرى الدهر خائنا فالبشر كلهم خائنون ، وحين يرى الدهر غادرا فالبشر كلهم غادرون .

والمحنة وآثارها فى نفس الشاعر ، من أعظم الروافد التى أمدته بصور غدر الزمان وتقلبه ، كما أفاد الشعراء أيضا من تجارب سابقة ، ومن رؤيتهم الخاصة ، ومن استعدادهم لتقبل الأمر ، وتحمله أو الانهيار أمامه .

ومما لاشك فيه ، فإن معظم معان وأخيلة هذه الطائفة من الشعراء المجان قد استمدت من صور وأقوال مأثورة ، كانت سائدة فى عصورهم ، وتتردد على ألسنة غيرهم ، من مجربين آخرين ، فجاءت معظم صور الشكوى من الدهر ، وكأنها نظم لمعان منثورة كثيرة ، ولأقوال حكماء سائدة فى أزمنتهم .

ومن هذه الروافد التى أمدتهم ، ما جاء ذكره فى زهر الآداب ، عن الدهر ووصفه ، وعن الدنيا وذمها ومنه « هو الدهر لا يعجب من طوارقه ، ولا ينكر هجوم بوائقه ، عطاؤه فى ضمان الارتجاع ، من عرف الزمان لم يستشعر منه الأمان ، الدهر مشحون بطوارق الغير ، مشوب صفو أيامه بالكدر ، ممزوج صابه بالعسل ، وموصول صال الأمن فيه بأسباب الأجل »[٧٨] .

ومن أقوالهم من الدنيا « أن الله جعل الدنيا دار خلقة ، ومحل نقلة ، ولا المقام فيها إلا للرحلة »[٧٩] وقالوا أيضا فيها : « موهوب الدنيا مسلوب ، وإن أرجىء إلى مهل ، وممنوحها مجذوب وإن أخر إلى أجل ، لو خلد من سبق لما وسعت الأرض من لحق »[٨٠] .

إن الشكوى من الدهر ، من المعانى المشتركة عند طائفة كبيرة من الشعراء المجان ، حين تابوا ، خاصة حين عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الصمود أمام كوارث الدهر ، فأسقطوا أحزانهم على الدهر ، وبثوا شكواهم فى الدنيا مصورين غدرها وتقلبها .

وقد عبر بعض الشعراء عن الشيخوخة والهرم ، وما يصاحبها من شهور بالرحيل وإحساس بالنهاية ، فقد تغير الدهر ، وتبدل وبعد إن كان الشاعر يفخر بالحيوية والعطاء ، أصبح عاجزا ضعيفا .

---

(٧٨) الحصرى - زهر الآداب / جـ ٢ ص ٨٠٣ .
(٧٩) الحصرى - زهر الآداب / جـ ٢ ص ٨٠٣ .
(٨٠) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٠٣ .

وتخيل بعض الشعراء أعداء له بين الناس ، ولمس فيهم إنصرافا عنه ونبوا ، بعد أن صار فى حاجة إليهم ، وفى حاجة إلى من يمد اليد إليه ، فاعتزل ، ورضى بعزلته ، وبدأ يخاف البشر ، ويرى فيهم ذئبا ووحوشا مفترسة ، ورأى بعضهم الحياة وكأنها خالية من البشر ، فلا ترى عينيه أحدا من حوله .

والناشىء الأكبر[٨١] من الشعراء الذين تبدلت نظرتهم للحياة بنزول المحن عليه ، فبعد أن كان يفضل الخمر ، ومجالسة الأخوان كما جاء فى قوله نثرا « إن من لا يعرف قيمة الخمر ، فقد جهل فضلها لما فيها من المنادمة من استعجال المروءة ، واستكمال الفتوة ، ومن الفائدة فى مؤانسة الاخوان ومعاشرة الخلان ، ونفى الهموم والأوصاب »[٨٢] .

وحين يفرض الناشىء الأكبر حول نفسه عزلة ، فى أعوامه الأخيرة ، بعد تجارب مريرة على نفسه وقاسية ، وبعد أن لمس جحودا وإنكارا من الناس ، ومن معارفه ، نراه يقول شاكيا :

خبرت الأنام فما إن وجد ت على محنة من يساوى فقيرا
فلما تبينت أنى التمست من الناس شيئا بعيدا عسيرا
فزعت إلى الأنس بالانفرا د فكان التقلل منهم كثيرا[٨٣]

وقد فعلت الأيام بالناشىء فرقة وبعدا واغترابا ، فقال فيها :

فرقتنا الأيام أحسن ما كنا على حين غفلة واغترار
فافترقنا من بعد طول اجتماع ونأينا بعد اقتراب الديار[٨٤]

ومن الشعراء الذين صوروا أزمة ثقتهم بالآخرين ، الشاعر دعبل بن على الخزاعى ، فقد عبر عن خيبة ظنه بهم ، فقال فى أحدهم حين تغيرت به الأيام ، وتبدل فقره يسرا :

فتى كنت أرجوه وآمل يومه وأشفق ان يغتاله حدث الدهر
فلما تبوأ منزل اليسر والغنى رمى أملى منه بقاصمة الظهر[٨٥]

ويخيب أمل دعبل الخزاعى فى الناس جميعا ، وأصبح يرى أحلى ما فيها مرا ، فقال :

قد بلوت الناس طرا لم أجد فى الناس حرا

---

(٨١) يراجع فى الناشىء الأكبر طبقات ابن المعتز ٤١٧ – ٤١٨ – تاريخ بغداد ١٠ : ٩٢ – ٩٣ – وغيات الأعيان ١ : ٤٧١ – ٤٧٢ – أنباء الرواة ٢ : ١٢٨ – ١٢٩ – شذرات الذهب ٢ : ٢١٤ – ٢١٥ ، بروكلمان ١ : ١٢٨ ، الملحق ١ : ١٨٨ – تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ جـ ٢ ص ٣٧٤ .

(٨٢) المختار من قطب السرور ص ٧٥ – ٧٩ .

(٨٣) مجلة المورد – شعر الناشىء الأكبر ص ٩٥ العدد ٧٢ السنة ٨٥ .

(٨٤) مجلة المورد – ص ٩٥ .

(٨٥) ديوان دعبب بن على الخزاعى – ص ٢٠٠ .

صار أحلى الناس فى العـ ـين : إذا مـاذيق - مـرا[٨٦]

ويكرر المعنى ذاته ، حين سأل : ما الوحشة عندك ؟ قال النظر إلى الناس ، ثم قال :

ما أكثر الناس : لا بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقـل فنـدا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا[٨٧]

فالشاعر يرى كثيرين ، ولكنه لا يقتنع بأحد منهم « وقد وتوسل دعبل لإبراز صورته بالمقابلة اللفظية بين الكثرة والقلة ، والمقابلة المعنوية بين وجود الكثيرين وعدم رؤيته أحدهم ، وفى الصورة كناية عن الاحتقار والاستهزاء بالبشر أجمعين ، وتصوير لعدم الاقتناع بهم »[٨٨] .

فلقد زهد هؤلاء الشعراء فى الأصدقاء م وفى الناس ، وآثروا العزلة والابتعاد ، مع ما عرف عن آمثالهم من غشيان المجالس ، وممارسة ألوان المجون ، وتتسع نظرة بعضهم فيلعنوا الحياة جميعها ، ويصورون تقلب الدهر ، وتغير الحياة ، ونرى بعضهم وهو يعزى فشله إلى الدهر ، ويجعله مسئولا عما ألم به ، ويرى ابن المعتز ذلك ، حين يقول عن الدهر :

أخنى عليك الدهر مقتدرا والـدهر الأم غـالب ظفرا
مـا زلت تلغى كل حادثـة حتى منـاك وبيض الشعـرا
عـلى إخـوان فـقـدتهـم سكنوا بطون الأرض والحفرا
أين السبيـل إلى لـقـائهـم أم من يحدث عنهم الخبرا[٨٩]

ويستمر ابن المعتز فى حديثه عن الدهر من تجربته الخاصة ، وهو يصور الدهر قاسيا ظالما لا يرحم دموعه ولا يستمع إلى شكواه وبكائه ، فيقول :

خليلى إن الدهر لا يرحم البكا خليلى إن الدهر ما قد علمتما[٩٠]

وابن المعتز من أبرز الشعراء الذين تعرضوا لمحن غيرت مجرى حياتهم ، وإذا كان هناك شعراء غيره يشكون الدهر ، ويصورون تقلب الدنيا وتغيرها ، ويسبقون ابن المعتز فى الظهور ، فإن شكوى ابن المعتز أبرز من شكواهم ، وذلك لأن تغير الدهر معه كان أوضح وأظهر ، وتأثيره فى حياته أشد من تأثير الدهر فى حياة الشعراء الآخرين الذين شكوا منه .

وتتعدد شكوى ابن المعتز من الدهر ، وهو يرى أن الدهر كاذب ، لا يعرف الصدق ، ولا يبر بوعد ، ويرى أن الدهر يقلب الأحوال ، ويبدل السرور غما ، والأمن ضياعا ، فيقول ابن المعتز :

---

(٨٦) ديوان دعبل بن على الخزاعى - ص ١٩٠ .
(٨٧) ديوان دعبل الخزاعى - ١٧٢ - ١٧٣ .
(٨٨) د . على أبو زيد - الصورة الفنية فى شعر دعبل بن على الخزاعى دار المعارف ط ٢ ص ١٥٣ .
(٨٩) الحصرى القيروانى - زهر الآداب ٢ / ٨٧٨ .
(٩٠) ديوان ابن المعتز / ٥٠٥ .

كذب الدهر فما فيه سرور يقلب الحال وينقض الجميع
أبط ما شئت وسر سيرا رويدا إن سير الدهر بالمرء سريع[٩١]

ويجمع ابن المعتز فى صورة واحدة ، بين ذم الناس والشكوى عن الدهر ، فيقول :

لا خير فى العالمين كلهم ولا من العالمين منفردا[٩٢]

ويقول عن الزمان الغادر :

عفى وغيرها زمان غادر متقلب فى شرطه ان ينكثا[٩٣]

ويقول – أيضا – فى تغير الزمان وتبدله :

ما زال صرف الزمان يقسمنا على المسرات والمساءات[٩٤]

والدهر عنده ينزل عليه من (الفجيعات) كل يوم ، ما يسىء إلى مسراته ، فيقول :

يا دهر يا صاحب الفجيعات فى كل يوم لشىء مسرات[٩٥]

ويبحث الشاعر عن سند له يعتمد عليه أمام تحدى الدهر له وإساءته إليه بعد إحسان فيقول ابن المعتز :

هل من معين على أحداث زمانى أسآن معتمدات بعد إحسان[٩٦]

وشكوى الشعراء المجان من الدهر ، لم تأت وهم فى مجونهم ، ولكنها جاءت عند توبتهم وعند إقلاعهم عن المجون ، وجاء بعد ذلك التغير الذى أصاب سلوكهم ، فجعل رؤية الشاعر للحياة وللناس مختلفة تماما عما كانت عليه .

وشكوى الدهر عند المجان لا مدح فيها ، ولا ترحيب بالدهر ، ولكنها تعتمد على تجسيم الهموم ، وتجسيد الأحزان ، وتصوير محن الشعراء . وقد يخلو شكوى الدهر – عادة – من التصريح بالمحنة التى وقعت بالشاعر ، فلا تلميح فيها إلى النازلة ، ولا إشارة إلى المصائب ، كما أن شعر الشكوى من الدهر يخلو من توجيه الشكوى المباشرة من فرد معين ، مهما كان هذا الفرد سببا فى الكارثة التى نزلت بالشاعر ، فجاءت الشكوى من الدهر عبارة عن خلاصة تجربة الشاعر ، الذى أضحى يرى تقلب السرور إلى غم ، والأمن إلى فرقة واضطراب .

ومن الشعراء العباسيين الذين شكوا الدهر ، الشاعر أبو العتاهية ، فنراه يدعو فى شكواه

---

(٩١) ديوان ابن المعتز / ١٣٣ .
(٩٢) ديوان ابن المعتز / ٦٦٤ .
(٩٣) ديوان ابن المعتز / ٦٣٢ .
(٩٤) ديوان ابن المعتز / ٦٢٢ .
(٩٥) ديوان ابن المعتز / ٦٢٢ .
(٩٦) ديوان ابن المعتز / ٦٠٠ .

الآخرين إلى ذم الدنيا ، فقد أزهبت عز العزيز وجعلته محروما ، بعد أن كان محسودا على نعمه ، وجاء فى ديوان أبى العتاهية « أن عابدا مر براهب فى صومعته فقال له : عظنى ، فقال : أعظك وشاعركم الزاهد قريب العهد بكم ، فاتعظ بقول أبى العتاهية ، حيث يقول :

ألا كل مولود ، للموت يولد ... ولست أرى حيا لشىء يخلد
تجرد من الدنيا ، فإنك إنما ... سقطت إلى الدنيا ، وأنت مجرد
وأفضل شىء نلت منها ، فإنه ... متاع قليل يضمحل ، وينفذ
وكم من عزيز أوهب الدهر عزه ... فأصبح محروما ، وقد كان يحسد
فلا تحمد الدنيا ، ولكن ذمها ... وما بال شىء ذمه الله يحمد[٩٧]

ويشكو الشاعر « على بن الجهم » من الدهر ، ويصفه بالظلم ، والتقلب ، والشاعر يتحمل تقلبه ، بنفس كريمة أبية ، وبنظرة تختلف عن نظرة أبى العتاهية ، وذلك لاختلاف نفسيته عن نفسية أبى العتاهية ، فلا يذم الدنيا ، لا يذم الدهر ، بل نرى ابن الجهم ، وهو يطلب من النفس أن تتحمل ، فليس من العار زوال النعمة ، ولكن العار كل العار زوال التجمل والتحمل ، والصبر والصمود ، فيقول على بن الجهم :

هى النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارا أن يزول التجمل[٩٨]

ومن المعروف أن المحنة التى نزلت « بعلى بن الجهم » قد أودعته السجن مدة ليست قصيرة .

ومن الشعراء الزهاد بعد مجون ، الشاعر « محمد بن يسير » ، فقد كان ماجنا هجاء خبيثا)[٩٩] وله شعر يدل على زهده ونسكه ، ويذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أبياتا لابن يسير فى مجونه ، وأخرى فى زهده ونسكه ، ويرى الحاجرى أن الجاحظ فى بخلائه « كان يصور ابن يسير فى صورة الرجل القلق ، الذى يجد حينا ، ويهزل حينا ، والذى كان يقبل على النبيذ ، كما كان يقبل على الكتب »[١٠٠] ويعجب د . هداره من وصف الأصفهانى لابن يسير بالمجون وبالهجاء الخبيث ، ويرى أن هذه الصفات ، لا تتفق مع الزهد ، ويفسر ذلك فى قوله « ولعل الأصفهانى كان يريد أنه كان كذلك فى مطلع حياته ، قبل أن يتنسك ويتجه إلى الزهد »[١٠١] .

---

(٩٧) ديوان أبى العتاهية / ١٢٨ .
(٩٨) ديوان على بن الجهم / ٢٧٠ .
(٩٩) الأصفهانى - الأغانى - جـ ٢٤ ص ١٧ .
(١٠٠) د . الحاجرى - البخلاء - ص ٢٩٢ .
(١٠١) د . هدارة - اتجاهات الشعر ص ٣٠٨ .

ومن أشعار ابن يسير فى زهده ، وبعد تنسكه وتصويره للدهر ، وزوال السرور بعد التغيير الذى يلحق بالنعيم واللذة ، ما جاء فيه :

أى صفو إلا إلى تكدير ونعيم إلا إلى تغيير
وسرور ولذة وحبور ليس رهنا لنا بيوم عسير
عالم لا أشك أنى إلى الله إذا مت أو عذاب السعير
ثم أهو ولست أدرى إلى أيهما بعدة يصير مصيرى
كلما مر بى على أهل ناد كنت حينا بهم كثير المرور
قيل من ذا على سرير المنايا قيل هذا محمد بن يسير[١٠٢]

وتخلو رؤية ابن يسير إلى الحياة من الشؤم ، وهو يرى أن التغيير أمر ضرورى ، وأن التبدل من النعيم إلى الشقاء ، لا مفر من حدوثه ، وتبدو روحه أكثر إيجابية فى تقبل هذه الأمور ، فهو مستعد لما يحدث ، ومتوقع لحدوثه .

ومن الشعراء الذين شكوا الدنيا ، وكانت محنتهم نابعة من فقرهم الشاعر « الحمدونى » ، فقد شعر بخيبة الأمل ، فقد خاب فى تحقيق أحلامه ، وهذا الشعور بالخيبة دفعه إلى الشكوى من الدنيا ، التى لم يظفر منها بشىء ، فهو لا يتمتع كما تمتع غيره ، وهو يتحسر لأنه لم يكسب غير ألمه ، بينما يجد غيره يستمتع بالحياة وملذاتها ، فيقول شاكيا الدنيا :

من كان فى الدنيا له شارة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كثب حسرة كان لفظ بلا معنى[١٠٣]

ويجعل الحمدونى شكواه من الدهر على لسان طيلسانه القديم ، الذى وهبه إياه محمد بن حرب ، ولم يرضه ، فقد كان باليا ، متبرما بالحياة ، لا يلتذ بعجزه ، ولا يصلح معه تجديد ، فقد أصيب بالكبر ، يقول الحمدونى :

يا طيلسان أبى حمدان قد برمت بك الحياة فما تلتذ بالعمر
فى كل يوم له رفا يجدده هيهات ينفع تجديد مع الكبر[١٠٤]

وفى يتيمة الدهر للثعالبى ، شعر للخالديان فى شكوى الأيام ، وفى تصوير قسوتها ، مع قوة نفس وتحمل ، فقد أكثر الدهر من حوادثه التى تألفت النفس معها ، وإذا كان الشاعر لم يشك الزمان حين كان صفوا ، فكيف يشكره وهو فى حالته هذه التى أصبح عليها من الغم والهم :

تزيدنى قسوة الأيام طيب ثنا كأننى المسك بين الفهر والحجر

---

(١٠٢) الأصفهانى - الأغانى - ٢٤ / ١٧ .
(١٠٣) الحصرى - زهر الآداب ١ / ٥١٣ .
(١٠٤) الوفيات - ٦ / ٦٥ .

ألفت من حادثات الدهر أكبرها ... فما أعوج على أطفالها الأصر
قالت رقدت فقلت الهم أرقدنى ... والهم يمنع أحيانا من السهر
ولست أبكى لشيب قد منيت به ... يبكى على الشيب من يأس على العمر
كن من صديقك لا من غيره حذراً ... إن كان ينجيك منه شدة الحذر
ما إن أطمئن إلى خلق فاخبره ... ألا تكشف لى عن لؤم مختبر
وقد نظرت إلى الدنيا بمقلتها ... فاستصغرتها جفونى غاية الصغر
وما شكرت زمانى وهو يصفونى ... فكيف أشكره فى حال منحدر[١٠٥]

وتمتزج النظرة فى الأبيات السابقة بلون من الشؤم ، وانعدام الثقة فى الآخرين ، واحتقار الدنيا واستصغارها ، فالشكوى والتبرم واضحتان حتى فى السعادة والصفاء .

ويشكو شعراء غير زهاد من الدهر ، وهم من الشعراء الذين لم يتوبوا عن مجونهم ، توبة حقيقية ، وسبق أن أشار البحث إلى أن بشارا قد أجبر على ترك المجون ، إستجابة لأمر المهدى ، ولكن هذا الموقف لم يمنع مثل بشار من الشكوى من الدهر ، أكثر مما اجاد غيره من الشعراء الذين زهدوا ، فقد استحدث بشار صوره وتعابيره من طبيعته الفنية الخصبة ، ومن شكوى بشار فى الدهر ، قوله :

قد لعب الدهر على هامتى ... وذقت مرا بعد حلواء[١٠٦]

ويقول صاحب ديوان بشار (له فى الزهد وذم الزمان ، ومما قاله على قافية الألف فى الزهد وذم الزمان :

ذهب الدهر بسمط وبرا ... وجرى دمعى سحا فى الردا
وتأيبت ليوم لاحق ... ومضى فى الموت أخوان الصفا
ما أراك الدهر إلا شاخصا ... دائب الرحلة فى غير غيار
فدع الدنيا وعش فى ظلها ... طلب الدنيا من الداء العليا
ربما جاء مقيما رزقه ... وسعى ساع وأخطأ فى الرجا
وفناء المرء من آفاته ... قل من يسلم من يحى الفنا
فارض بالقسمة من قسامها ... يعدم المرء ويغدو ذا ثرا
أيها العانى ليكفى رزقه ... هان ما يكفيك من طول العنا[١٠٧]

ويعلق صاحب الديوان على قول بشار بقوله « لاحظ لهذه القصيدة ، ولا لبشار فى الزهد ، وإنما هى فى الفخر وذم الزمان وأهله .

---

(١٠٥) الثعالبى - يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(١٠٦) ديوان بشار - جـ ١ ص ٥١٤ .
(١٠٧) ديوان بشار - جـ ١ ص ١٥٧ .

إن مجون بشار فى غير حاجة إلى تأكيد ، وإن هذا المجون بفنونه المختلفة ، لم يحل دون قول بشار الحكمة ، ودون أن يشكو من الدهر ، وربما كان بشار يتصنع القول أحيانًا ، وربما كان مخلصًا فى قوله أحيانًا أخرى ، فلا يمنع المجون من أن تلم بالماجن لحظات صحو خاطفة ، يبصر فيها حقيقة الأشياء ، ويعود بعدها إلى مجونه .

وما يهم البحث غير ما صدر عن هؤلاء المجان من قول فيه حكمة أو نظرة إلى الحياة ، مختلفة عن نظرتهم إليها فى مجونهم .

إن الظروف التى مرت ببشار جعلته متقلب الأحوال ، متغير المزاج ، ومن الضرورى أن يكون مهمومًا بحالته الخاصة ، ومهمومًا بظروفه التى فرضت حوله ، وجعلته مندفعًا فى تيار المجون ، وكثيرًا ما يتجرأ بشار ويهدم كل حدود اللياقة ، ويتخطى الضوابط الاجتماعية .

وهذا البحث يهتم بما صدر عن الشاعر من قول ، ولا يحاسبه على اعتقاده بما يقول ، أو عل عدم اعتقاده به ، فإن شعر الشاعر هو المحك الأول فى تقييم شعره فنيًا وموضوعيًا ، ودراسته الدراسة الجمالية ، وكل هذا يؤكد براعة بشار الماجن فى قول الحكمة ، وفى تصويره للدهر ، ومن الضرورى أن يكون لمزاجه الخاص ، ولظروفه الخاصة أثار فى هذه الرؤية التى كونها عن الحياة وعن الدنيا وعن البشر جميعًا ..

ويصور بشار تقلب الدهر فى مدحه لعقبه ، ويؤكد ذهاب العيش ، وتحول العمران إلى خراب ، فيقول :

يـا دار بين الفـرع والجناب ... عفـا عليهـا عقب الأعقـاب
قـد ذهب والعيش للذهـاب ... لما عـرفنـاهـا عـلى الخـراب
فـانقلبت والدهـر ذو انقلاب ... ما أقرب العامر من خراب[١٠٨]

ويمدح بشار بن برد يزيد بن هبيرة ، ويشيد بموقفه من الفتن وخروج أهل حمص عليه ، حين قاتلهم يزيد بالعراق ، فيقول :

أطـب لـلديـن إذ ارتـقـت ... عينـاه من طاغيـة مجـرب[١٠٩]

فقد رأى بشار فى الخوارج وأهل الباطل فسادا على الدين على طريق التخيلية ، إذ شبه الهيئة الحاصلة من إضرارهم للدين ، بالهيئة الحاصلة من عدوى الأجرب للصحيح ، وجعل مقاومة الممدوح إياهم ، ونبه على الدين كمعالجة الطبيب لذى الجرب .

ويشكو من الدهر ، فى موضع آخر ، ويتوقع نوازله ، ولكنه يؤمن برحمة ربه ، ويصور النفس البشرية وقد لا يتحقق لها كل ما تتمناه ، فيقول بشار :

---

(١٠٨) ديوان بشار جـ ١ ص ١٦٤ .
(١٠٩) ديوان بشار جـ ١ ص ١٧٦ .

لا تذكرى ما مضى وشأنك لى اليـ ـيـوم فإن الـزمـان ينقلب
حلوا ومـرا وطعـم ثـالثـة فى كل وجه من صرفه عجب[110]

وبشار يجعل للدهر طعما ثالثا ، غير ما ورد الشعراء من حلوه ، ومره ، وربما يعنى بهذه الحالة الثالثة ، فقدان الأحساس بالألم أو بالأمل ، وعدم الشعور بما يجرى ويدور ، ويعزى بشار ذلك إلى الهر ، فيقول :

قلبنى الـدهـر فى قـوالبـه وكـل شىء لكونـه سبب[111]

ويرى بشار فى طيب العيش عذابًا ، فقد يحول الدهر حالة النعيم إلى حرمان ، فتتغير الفرحة إلى ألم وبكاء ، وإلى حزن لضياع ما كان يسعد به الإنسان ، فيقول فى تصويره للدهر وللحياة :

نغص طيب العيش تنصيب وفى الملمات الأعاجيب
والدهر طلاع بأحكامه والمرء مخدوع ومكذوب
والناس من غاد ومن رائح يحصى عليه البر والحوب
لا يشتهى الموت ويمنى به كرها ، وطيب العيش تعذيب[112]

ويجعل بشار للدهر بناتا ، هن لياليه ، التى ترمى الإنسان بالمصائب ، وتحرمه من أحبته ، ومن صحبه ، وما بقى حى ولا يخلد ، فيقول :

مهلا فإن بنات الدهر عاجلة فى الغبرين وما حى بخلاد
من قر عيناه رماه الدهر عن كثب والدهر رام بإصلاح وإفساد
وكيف يبقى لإلف إلف صاحبه ولا أرى والدا يبقى لأولاد[113]

ولا يرى بشار فى الدهر أمنا ، فلا يثق به ، ويتعامل معه على حذر ، فالزمن يشرب الصفو ، ويبقى الكدر ، فيقول :

ذهب المعروف إلا ذكره ربما أبكى الفتى ما ذكرا
وبقينا فى زمان معضل يشرب الصفو ويبقى الكدرا[114]

ويقول بشار فى المعنى ذاته :

عتبت على الزمان ، وأى حى من الأحياء أعتبته الزمان

---

(١١٠) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦٤ .
(١١١) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦٦ .
(١١٢) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٩٩ .
(١١٣) ديوان بشار جـ ٢ ص ٢٠٨ .
(١١٤) ديوان بشار جـ ٣ ص ٦٦ .

وآمنة من الحدثان تزرى على ، وليس من حدث أمان[١١٥]

فالشاعر يحتج على الزمن ، ويتهمه بالغدر والخيانة ، ويرى تقلبه أمرًا حتميًا ، وتبدل حالات الإنسان شيء لا مفر منه ، وكان بشار يتخذ من شكوى الدهر موقف الرفض والاحتجاج ، فهو يرفض الوجود ويرفض المجتمع أحيانًا ، ولا تخلو رؤيته إلى الدهر من شعور سوداوى ، ومن اكتئاب وانقباض ، فيذهب إلى نبذ المجتمع ، وإلى اعتزال الآخرين ، وإلى عدم الإحساس بجمال الحياة ، وبآلامها أيضًا ، فى بعض الأوقات .

وللشاعر أبى تمام شعر فى الدهر ، يحمل رؤيته الخاصة ، التى تختلف عن رؤية غيره من الشعراء ، ويشير إلى ضرورة الزهد ، وضرورة التحلى به ، ولكن أبا تمام ليس من الشعراء الزهاد ، أو الذين كانت لهم فلسفة خاصة بالتوبة أو الاستغفار : ولكنه يتخذ من الزهد وسيلة يمدح بها ممدوحيه ، حين يرسمهم فى تلك اللوحة التقية المؤمنة ، فنراه يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بالزهد فى قوله :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد
إذ المرء لم يزهد وقد صبغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهد[١١٦]

ورأى أبى تمام فى الزهد له وجاهته ، فيرى أن الزهد يكون حين يعطى الدنيا ، وحين تقبل الحياة ، وحين يكون المرء قادرًا على الاستمتاع بهذا العطاء ، ولكنه يحجم عنها : ويعرض عن متعتها ، أما الزهد فى الدنيا المدبرة التى تولت ، وحين يكون المرء عاجزًا أيضًا ، فليس بزهد ، وليس بزاهد من يدعى ذلك .

ومن قول أبى تمام فى الزهد أيضًا :

تعصفر خديها العيون بحمرة إذا وردت كانت وبالا على الورد
إذا زهدتنى فى الهوى خيفة الردى جلت لى عن وجه يزهد فى الزهد[١١٧]

والزهد عند أبى تمام هو الامتناع عن طريق الهوى ، وحين يتعالى المرء على الهوى : ويتجنب مسالكه ، فقد زهد ، ومن أحلى ما صور به أبو تمام الزهد هو ذلك الوجه الذى يزهد فى الزهد ..

فالزهد فى أبيات أبى تمام هو البعد عن المجون وتجنبه ، كما أنه أشار إلى زهد آخر وهو الزهد فى الزهد ، والزهد عنده يجب أن يكون فى أمور تستحق أن يزهد فيها الزاهد ، وأن يكون فى إقبال الحياة لا فى إدبارها .

---

(١١٥) ديوان بشار جـ ٣ ص ٦١ .
(١١٦) شرح الصولى لديوان أبى تمام - ت : رشيد نعمان - العراق - ص ٤٦١ .
(١١٧) ديوان أبى تمام / ٤٥٦ .

أن رؤية أبي تمام للدهر ، وتصويره لنوازله ، تتسم بكثير من التحمل ومن قوة العزيمة ، ومن الصمود أمام تحمل نوائب الدهر ، وهي رؤية تتخذ طابعها من شخصية الشاعر ، وتصور نفسية صاحبها ، وتختلف عن نظرات غيره من الشعراء ، ولم يكن زهد أبي تمام – إذا جاز أن يكون له زهد – غير ومضات خاطفة ، وردت في ثنايا أشعاره .

ونرى أبا تمام وهو يدعو إلى الحزم في تحمل أهوال الزمان ، ويعترف بتقلب الدهر ، ويستعد لتغيره وتحوله ، فيقول :

إذ المرء لم يستخلص الحزم نفسه فـذروته للحـادثـات وغـاربـه
ذريني وأهوال الزمان أقاسهـا فأهواله العظمى تليها رغائبه[118]

والشاعر يحذر المرء الضعيف ، غير القادر على مجابهة نوازل الدهر ، كما أن الشاعر لم يشك الدهر ، شكوى غيره من الشعراء ، مما جعل نظرة أبي تمام للدهر زاخرة بالحيوية والتفاؤل والإيجابية ، فهو يرى أن أهوال الزمان العظمى ، ونوازله الكبرى ، لا بد وأن تعقبها الآمال العظيمة ، والأحلام العريضة ، ويرى أن الدهر يختبر الإنسان ، فإذا حمد في اختباره ، فاز ونال أمانيه .

ويعلن أبو تمام إعراضه عن المصائب وعن ظلمها ، ويصفح عن الزمان حتى إذا أخطأ ، وأذنب في حقه ، وقصر في واجبه ، وأعطى غيره ما لا يستحقه ، فيقول :

فلأعرضن عن الخطوب وجورها ولأصفحن عن الزمان المذنب[119]

ويقول أبو تمام أيضًا :

والحظ يعطاه غير طـالبـه ويحـرز الدر غـير مجتلبـه[120]

وأبو تمام لا يسف في قوله ، بل يلتزم طريقته الفنية الجادة ، فلا تقل صورة في تعبيره عن الهوى ، عن صوره في التعبير عن الدهر ونوازله .

إن موضوع الشكوى من الدهر ، وذم الدنيا ، من أبرز الموضوعات في زهد المجان ، وقد اشترك فيها معظم الشعراء ، واختلفت وجهات نظرهم ، وهذا الاختلاف مرجعه إلى طبيعة الشاعر نفسه ، فمنهم من خضع للدهر واستسلم ، وشعر باليأس والإحباط ، واستعد للرحيل ، فقد أسقطته المحنة ، وأهلكته ، ومنهم من رفع رأسه أمام موجات الدهر العاتية ، مبتسمًا صامدًا ، حتى عبر الأزمة ، فازداد قوة وصمودًا وتفاءل بأن الرغائب سوف تأتي بعد ذلك .

وكانت مصادر مضامين شعر الشكوى من الدهر تنبع من تجارب الشعراء الخاصة ، ولم يذكر

---

(١١٨) ديوان أبي تمام / ٢٨٩ .
(١١٩) ديوان أبي تمام / ٣١٣ .
(١٢٠) ديوان أبي تمام / ٣٢١ .

الشعراء المحنة فى شكواهم ، واتفق معظمهم على تصوير الدهر بالتقلب والتحول ، وبالغدر والخيانة ، بينما شذ آخرون عنهم فرأوا أن هذا أمر عادى ، وعلى الإنسان أن يحذر ويحتاط ويستعد لمثل هذا التغير .

وقد رأى بعض الشعراء فى تغير الدهر خرابًا وضياعًا لكل الآمال ، وتحطيمًا لكل الأحلام ، بينما انتظر آخرون فرجا يضىء لهم الطريق .

وقد لا يشترط فى الشعراء الذين اشتكوا من الدهر أن يكونوا زهادا ، فقد عبر بعضهم عن الشكوى وهو غير تائب عن مجونه ، فجاءت أشعاره فى شكل أبيات قليلة ومتناثرة ، ولكنها لا تخلو من صدق فى العاطفة ، ومن حرارة فى الوجدان ، ولعل ذلك يرجع إلى صدق التجربة .

وإن الشعراء الذين صوروا الدهر وشكوا منه ، لم يأت ذلك من فراغ ، ولم يكن موضوع الشكوى من الدهر من الموضوعات التى يحاول الشعراء إثبات مقدرة فنية ، ولكنه ينبع دائمًا من تجارب الشاعر الذاتية ، ومن همومه الخاصة ، حتى ولو لم تظهر فى أشعاره وفى أقواله ..

ومن الطبيعى أن تختلف رؤية أبى العتاهية عن رؤية بشار ، وتختلف رؤية ابن المعتز عن رؤية أبى تمام ، كما كان لعلى بن الجهم والحمدونى ومحمد بن يسير أفكارهم الخاصة ، فى تصوير هذا المضمون .

وقد وردت أبيات شكوى الدهر فى ثنايا قصائد الشعراء ، ولم يجعل الشاعر لها قصيدة خاصة ، أو مقطوعة كاملة ، وغالبا ما جاءت فى مدائحهم ، كى يصوروا العظات والعبر ، فى الحديث إلى الممدوح ، وكى يستدروا عطف الممدوح ، فى تصوير العناء والشقاء ، فيجزل لهم العطاء ، ويحقق الشاعر رغبته فى تصوير نفسه ، فى صورة المرء المجرب للحياة ، الخبير بأمورها ، فهو قد خبر الحياة وخبر الأحياء ، وفهم الحقيقة .

وقد أفاد الشعراء – كما ذكرنا – من هذه الأقوال السائدة التى كانت منتشرة فى عصرهم ، على ألسنة الوعاظ والفقهاء والقصاص ، وفى مجالس الفلاسفة وعلماء الكلام .

ويبدو الفرق واضحا بين شكوى الشاعر من الدهر وبين فن الحكمة ، فلم تأت الشكوى فى شكل عظة مباشرة ، أو نصيحة موجهة ، بل جاءت تعبيرا عن موقف معين ، وعن رؤية خاصة للشاعر ، مما يجعل شعر الحكمة من المضامين البارزة التى اشتمل عليها شعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين .

٤ - الموت والرحيل ، وصورة القبر

إن ايمان الشعراء بحقيقة الموت وبالبعث والحساب ، صبغ كثيرا من معانيهم فى مرحلة توبتهم وزهدهم بصبغة خاصة ، فلم يشك واحد منهم فى حقيقة النهاية المحتومة ، ولم يستخف أحد منهم بحتمية هذا المصير ، وكان هذا الاحساس دافعا لكثيرين منهم إلى الإقلاع عن المعاصى ، وإلى هجر المجون ، وإلى الزهد فى نهاية الأمر ، فقد اقتربت الرحلة من نهايتها ، وبدت بشائر هذا الرحيل تنذر بقرب الأجل ، فما أجدرهم بأن يحسنوا خواتيم أعمالهم ، وبأن يسلكوا مسلكا بعيدا عن المجون ، وقريبا من النسك ومن الزهد .

وقد اختلفت تلك النغمات التى كانت تصدر عن هؤلاء الشعراء فى مجونهم عنها فى زهدهم ، وذلك أمر طبيعى لاختلاف الموضوعات ، واختلاف حالات الشاعر النفسية والمزاجية والفكرية ، واختلاف الحياة من حوله . فلم يعد هناك تصوير للكئوس والشراب ، بل غلب على شعر بعضهم ألفاظ القبر والموت والفناء والرحيل والهلاك ، والعظام النخره ، إلى آخر تلك الألفاظ والمعانى .

ومن الضرورى أن تختلف نظرة الشعراء إلى معنى الموت ، وإلى صورة القبر ، فمنهم من نظر إلى الموت وإلى القبر بتشاؤم واسع ، فأكثر من الصور المفزعة ، ومن الأخيلة المخيفة ليرهب نفسه ، ويرهب الآخرين من حوله ، ويمثل هذه النظرة الشاعر أبو العتاهية ، وقد أفاد بعضهم من هذا المعنى ، فكان تصويره للموت والقبر دافعا إلى التقوى وإلى الزهد ، وإلى التوبة والاستغفار والإقبال على الحياة بروح تختلف عن روح المجون ، ليشبع نفسه من الفتوى ومن النسك ، طالبا العفو من ربه استعدادا لهذه الحقيقة ولهذا المصير .

وقد عبر بشار بن برد ، فى بعض شعره عن حقيقة الموت ، وعن حتمية المعاد ، فنراه يقول :

أنا من قد علمت لا انقضى العهـ ـد ولا تستخفنى الآهـواء
وعجيب نكث الكريم ، وللنفـ ـس معاد ، وللحياة انقضاء[١٢١]

والمرء يفنى ، والموت له بالمرصاد ، فقد اقترب حينه ، وهو لا يدرى ، فيقول بشار :

بات يغنى والموت يطلبه والمرء يلهو وحينه كثب[١٢٢]

---

(١٢١) ديوان بشار جـ ١ ص ١٤٠ .

(١٢٢) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦٥ .

ويظهر بشار إيمانه بالقدر ، وإيمانه بحقيقة الموت ، ويطالب بالصبر ، فالموت إنجاز وعد ، فيقول :

الموت شيء هين والموت انجاز الوعاد
فاصبر لقسمة ما ترى لا يدفع القدر المعادى[١٢٣]

وكان بشار فى مثل أشعاره هذه ، يرد عن نفسه اتهامات شديدة ، قد وجهت إليه ، تطعن دينه ، وتشك فى عقيدته ، فقد اتهم بالزندقة ، وقد قتل على هذه التهمة ، كما رأينا فى مصادر كثيرة ، لذلك نراه يكثر من ذكر الايمان بالقدر ، ويدعو إلى الصبر ، ويكثر من الحكمة والموعظة ، ويدعو إلى التعامل بخلق حسن وكريم ، ويبدو كثيرا فى صورة صاحب النظرة الثاقبة والرأى السديد فى معاملة الأصحاب وفى العقاب وفى حسن التحلى بجميل الشمائل .

وقد استغل بشار مقدرته الفنية ، فى تعبيره عن آرائه التى يظهر فيهاس صحة إيمانه ، ويتبرأ ممن يشك فى عقيدته ، أو يطعن فى دينه ، ويكثر من ذكر الموت والبعث والنشور .

وهذا بشار يدافع عن نفسه ، ويتهم غيره ، ويعلن هجرة اللهو ، واعتزاله المجون ، فيقول :

يا طالب الحاجات لا تعصنى واسمع فانى ناصح هاد
دع عنك حمادا وخلقانه لا خير فى خلقان حماد
المؤثر الراسى على ربه والجاعل الخنزير فى الزاد
برئت من هذا ومن دينه نصيح للخشف برصاد
لا يشرب الخمر ولكنه يأكلها أكل امرىء عاد[١٢٤]

ويعنى بشار فى قوله (المؤثر الراسى) ما شاع بين عامة الناس ، من أن المجوس يعبدون رأسا ، ولعلهم كانوا يصورون رأس بعض أئمة دينهم مثل زرادشت ومانى ، أو أنه يقصد ما قالوا به من وجود إلهين أصل الخير وأصل الشر ، ويعبرون عنهما بالرأسين ، أى أساس الخير وأساس الشر .

ويقول بشار فى حماد أيضا :

يا بن نهيا رأسى على ثقيل واحتمال الرأسين خطب جليل
فدع غيرى إلى عبادة ربـ ـين ، فإنى بواحد مشغول[١٢٥]

---

(١٢٣) ديوان بشار جـ ٣ ص ١١٤ .
(١٢٤) ديوان بشار جـ ٣ ص ٩٣ .
(١٢٥) ديوان بشار جـ ٣ ص ١١٢ .

ويرثى بشار حميدا ، ويتوقع موته هو الآخر ، فيقول :

أحميد أن ترد المصائب فإننا رهن النفوس بمثل ذاك المورد
والناس كلهم وان بعد المدى عنق تتابع كلهم فى مقود
حران فارق الفه ونأى به دهر يعود على سواد الموجد
مما يعزى القلب بعدك إننى فى اليوم جارك يا حميد أو غد[١٢٦]

ويذكر بشار خراب الديار بعد عمرانها ، ويرى أن كل أخ سيذهب عن أخيه ، وان كل ما نحبه إلى زوال ، فيؤكد هذه الحقائق فى قوله :

ديار الحى بالركع اليمانى خراب ، والديار إلى خراب
ودهر المرء متقلب عليه فنونا ، والنعيم إلى انقلاب
وكل أخ سيذهب عن أخيه وباقى ما تحب إلى ذهاب[١٢٧]

ويقصر علم بشار عن معرفة ما سيقع عليه مستقبلا ، فيقول مؤكداً حقيقة الغيب وجهل الإنسان بها :

أريد فلا أعطى ، وأعطى فلم أرد وقصر علمى أن أنال الغيبا[١٢٨]

وحديث بشار عن هذه المعانى ، كان مدفعه إلى ذلك فى بعض الأحيان خوفه من الأمام وخشية الاتهام ، فيدافع عن نفسه ، بتأكيده صحة إيمانه ، ونراه يستغل مثل هذه الموضوعات فى مدائحه وفى مراثيه ، أى فى أشعاره الرسمية ، التى يخاطب فيها كبار القوم ، فيعبر عن الموت ويشير إلى زوال النعيم ، ولكن ما عيب على بشار ، وأخذ عليه ، أنه لم يشر إلى البعث ولم يذكر شيئا عن الحياة الآخرة بعد الموت ، مما أضعف عقيدته ، وإن بشار يرى الموت هلاكا وفناء وخرابا ، ولم يدع إلى العمل الصالح الذى يستعد به الانسان ليوم الحساب ، حين يقف بين يدى ربه ، وكل ما عبر عنه بشار هو حتمية الموت ، وحتمية النهاية .

ومن أكثر الشعراء ذكرا للموت ، وتصويرا للقبور ، الشاعر أبو العتاهية ، ويصور أبو العتاهية الموت وهو يغدو ويروح ، والناس فى غفلة عنه ، فيقول :

موت بعض الناس فى الأرض على قوم فتوح
كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح[١٢٩]

ويشترك أبو العتاهية مع غيره من الشعراء فى الحديث عن الموت ، ولكنه يفوقهم فى

---

(١٢٦) ديوان بشار جـ ٢ ص ١١٧ .
(١٢٧) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٧ .
(١٢٨) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦٩ .
(١٢٩) ديوان أبى العتاهية / ١١٧ .

تصويره للقبر ، وتصويره لساكنيه ، لينهج منهجه الذى عرف به فى زهده ، وهو ذلك النهج الذى اتسم بالخوف والرهبة وبالإكثار من ذكر المعانى التى ترهب الأحيان وتخيفهم .

ومن حديث أبى العتاهية عن الموت ، قوله :

الحمد لله ما يشاء ، ولا يقضى عليه ، وما للخلق ما شاءوا
لم يخلق الخلق إلا للفناء معا تفنى وتبقى أحاديث وأسماء[١٣٠]

ويقول أيضا :

يا بعد من مات ممن كان يلطفه قامت قيامته ، والناس أحياء
يقضى الخليل أخاه عند ميتته وكل من مات أقصته الأخلاء
لم تبك نفسك أيام الحياة لما تخشى ، وأنت على الأموات بكاء[١٣١]

ويرى أبو العتاهية فى شيبه نذيرا لموته ، ونذيرا بزوال الفرح والسعادة ، ويأخذ من ذلك فرصته ، ليدعو فيها إلى هجر المجون ، وإلى الزهد فى الحياة ، فيقول :

لاح شيبى الرأس منى ، فاتضح بعد لهو وشباب ومرح
فلهونا وفرحنا ، ثم لم يدع الموت لذى اللب فرح[١٣٢]

ويقول أبو العتاهية عن الموت - أيضا - :

سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة وا لموت يغدو ، ويروح
نح على نفسك يا مسكين ، إن كنت تنوح
لست بالباقى ولو عمـ ـرت ما عمر نوح[١٣٣]

ويكثر أبو العتاهية من نظمه فى الموت ، فالدنيا البقاء فيها قليل ، والفناء فيها وشيك ، وعلى المرء أن يتزود من التقى والصلاح ، قبل أن تأتى نهايته ، فيقول :

ألا نحن فى دار قليل بقاؤها سريع تداعيها ، وشيك فناؤها
تزود من الدنيا التقى والنهى فقد تنكرت الدنيا وحان انقضاؤها
غدا تخرب الدنيا ، ويذهب أهلها جميعا ، وتطوى أرضها وسماؤها[١٣٤]

وكاد ينقطع أبو العتاهية إلى القول فى الزهد ، ويخشى من منافسة الشعراء له فى زهدياته ،

---

(١٣٠) ديوان أبى العتاهية / ١١ .
(١٣١) ديوان أبى العتاهية / ١١ .
(١٣٢) ديوان أبى العتاهية / ١١٨ .
(١٣٣) ديوان أبى العتاهية / ١١٧ .
(١٣٤) ديوان أبى العتاهية / ١٤ .

ويبدو أنه اتخذه منهجا غنيا أكثر من اتخاذه عقيدة ومنهجا ، فقد تعارض زهده وقوله فى القناعة كما رأى البعض مع بخله وحرصه ، وقد تعرض البحث لتوضيح ذلك سابقا ، وأصبح أبو العتاهية يفخر بزهده ، حين يفخر الآخرون بالنسبة والجاه والثراء ، فتراه يفتخر بزهده ، فيقول :

دعنى من ذكـر أب وجـد ونسب يعليـك سـور المجـد
ما الفخر إلا فى التقى والزهد وطاعة تعـطى جنان الخلد[١٣٥]

ويجعل أبو العتاهية من زهدياته مقدمات لبعض قصائده ، حتى يمكن إضافة هذا اللون الجديد من ألوان المقدمات إلى ما عرف من المقدمات الفنية الأخرى ، ألا وهى المقدمة الزهدية ، التى أجاد فيها أبو العتاهية ، وأكثر النظم فيها ، وقد استهل بأبيات الزهد كثيرا من قصائده .

أن شعر أبى العتاهية فى زهده ، حين يتناول الموت والقبر ، فيه قليل من الايجابية ، لا سيما حين يدعو إلى التزود بالتقى والعمل الصالح ، استعدادا للنهاية ، ليرقى إلى جنات النعيم ، ويفوز بسعادة الآخرة ، وحديث أبى العتاهية عن الموت والقبر فيه كثير من التشاؤم ، ويبدو ذلك فى إكثاره من الاستعانة بألفاظ الخراب والدمار ، والحطام ، والدعوة إلى نبذ الآمال ، وإلى هجر الأمانى ، ما دام الكل إلى نهايته المحتومة يسعى .

ونرى الشاعر أبا نواس يصور الموت فى بعض أشعاره تصويرا يختلف عن تصوير أبى العتاهية ، وذلك لاختلاف طبيعة كل منهما ، ولاختلاف الدوافع التى أدت بكل منهما إلى الزهد وإلى الحديث عن الموت ، فقد اتخذ أبو نواس من حديثه عن الموت دافعا إلى العمل الصالح ، وإلى التمسك بالتقوى ، وإلى التقرب من الله ، ولم ير أبو نواس فى الموت ما رأى فيه غيره ، من سواد وخراب وهلاك ، وهذا أبو نواس يصور معنى من معانيه فى الموت ، فيقول :

الا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك راحل إلى منزل دانى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق[١٣٦]

ويقول أبو نواس فى الموت ، أيضا ، داعيا إلى التقى وإلى التزود وبالصلاح ، استعدادا لقرب الموعد :

أخى ما بال قلبك ليس يتقى كـأنك لا تـظن الموت حقـا
الا يا ابن الذين فنوا وبادوا أمـا والله مـا ذهبـوا لتبقى

---

(١٣٥) ديوان أبى العتاهية / ١٢١ .
(١٣٦) ديوان أبى نواس / ٩٨٣ .

ومالك غير ما قدمت زادا إذا جعلت إلى اللهوات برقا
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بذنبك منك أشقى[١٣٧]

ولأبي نواس شعر في الموت وهو لا يزال في مجونه ، قبل أن يزهد ، فيقول في رثائه لوالبة بن الحباب :

لا تبعدن أبا أسا مة فالمنية واجبة
كل أمرىء تغتاله فيها سهام صائبة
كتب الفناء على العبا د فكل نفس ذاهبة[١٣٨]

وتختلف نظرة أبي نواس إلى الموت ، وهو في مجونه ، عن نظرته إلى الموت وهو في زهده ، فلم ير في رثائه لوالبة وحديثه عن موته ، داعيا إلى التقوى ولم يدع إلى هجر المجون وإلى التمسك بالزهد ، ولكنه يرثي نديما وصديقا ، ويجامل أخا رحل ، ويرى الموت وهو يغتال البشر جميعا بسهامه الصائبة ، فالفناء مكتوب على العباد .

وحين يصور أبو نواس الموت في زهدياته يعبر عنه بشعور كله صدق وخوف من ثقل الذنوب ، وخشية عقاب الله يوم الحساب ، وأخذ أبو نواس يتغنى بهذه المعاني في قصيدة سهلة الحفظ ليرددها الآخرون ، وجاءت في بحر من البحور القصيرة ، وفي ألفاظ حقيقية ، حتى لا يحجبها عن فهم العامة وذوقهم ، وهو لم يجامل فيها أحدا ، ولم يرث بها صديقا ، ولم يبك على خليل ، ولم ينظمها ليبحث له عن مكان بين الشعراء الزهاد ، ولكنه قالها إيمانا واقتناعا بصحة ما يقول ، وقد جاء فيها :

كل ناع فسينعى كل باك فسيبكى
ليس غير الله شيء من علا فالله أعلى
قد كفانا الرزق ربي وله نسعى ونشقى
كل مستخف بشيء فسمن الله بمرأى
لا ترى شيئا على الله من الأشياء يخفى[١٣٩]

وقد خص أبو نواس هذه المعاني السابقة بمقطوعة مستقلة ، ولم يشرك معها موضوعا آخر ، كما كان يفعل إبان مجونه ، فقد كان يتناول بعض الحكم والمواعظ من خلال خمرياته ، ومن خلال مدائحه ، ولكنه في حديثه عن الموت كان الشاعر قد وصل إلى مرتبة التوبة الحقيقية ، غير المترددة ، فخص معنى الموت بمقطوعات مستقلة ، وفيها يطلب العفو والصفح الجميل من

---

(١٣٧) ديوان أبي نواس / ٩٨٤ .
(١٣٨) ديوان أبي نواس / ٩٥٦ .
(١٣٩) ديوان أبي نواس / ٩٧٧ .

ربه ، ويدعو إلى الزهد فى مباهج الحياة ، للتخفيف من الآثام والذنوب ، ويدعو إلى التقوى والنسك - أيضا - .

والشاعر ابن المعتز عبر هو الآخر عن الموت ، وعن فراق الأحبة ، حين قال :

راح فـراق أو غـدا لـسـت بـبـاق أبـدا
كـم لـك مـن أحـبـة مـاتـوا فـصـاروا بـددا
مـن سـار كـل سـاعـة أوشـك بـه أن يـردا[١٤٠]

ويبكى ابن المعتز على الأحبة ، الذين اختطفهم الموت ، فيقول :

قر عيشى على قد كان لذا ودهتنى الأيـام منهـا وحـذا
وانثنى عنى الشبـاب وغـودر ت فريدا من الآحبة فذا[١٤١]

والشاعر محمد بن يسير ، يقول عن الموت - بعد أن زهد وتنسك :

ويـل لمـن لم يـرحمـه الله ومن تكـون النـار مثـواه
يا حسرتى فى كل يوم مضى يـذكـرنى المـوت وأنـسـاه
من طال فى الدنيا به عمره وعـاش فـالمـوت قصاراه[١٤٢]

ويبكى الناشىء الأكبر على الأصدقاء الذين ذهب بهم الموت ، فالموت يذهب بالصديق ، ويذهب بالعدو ، فيقول الناشىء :

وكـان لنـا أصـدقـاء حمـاة وأعـداء سـوء فـلم يخـلدوا
تساقوا جميعـا كؤوس الحمام فمات الصديق ومات العدو[١٤٣]

وتناول شعراء آخرون غير المجان موضوع الموت ، وأختلف تناولهم لهذه الحقيقة عن الشعراء المجان الذين تابوا فلم يعرف فى شعرهم ذلك الاحساس بالهم الثقيل ، وذلك الخوف من العذاب لكثرة الذنوب ، ولكنهم طمعوا فى مغفرة الله وفى عفوه ، ومنهم الشاعر « ابن مناذر » الذى يروى عنه ابن المعتز فى طبقاته « أنه كان على ستر وصلاح وحلم ووقار » ومن أشعار أبى مناذر فى الموت التى يرويها له ابن المعتز فى طبقاته :

كل حى لا قى الحمام فمودى والحـى مـؤمـل وخـلـود
لا تهـاب المنون شيئـا ولا تر عى عـلى والد ولا مـولـود
يفعل الله ما يشـاء فيمضى ما لفعل إلا له من مردود
فكـذا للمـوت ركـب محثـ ـون سـراع لمنهـل مـورود

---

(١٤٠) ديوان ابن المعتز / ١ / ٨٤ .
(١٤١) ديوان ابن المعتز / ١ / ٩٠ .
(١٤٢) د . هدارة - اتجاهات الشعر / ٣٠٨ .
(١٤٣) شعر الناشىء الأكبر / ٥٣ .

أين رب الحصن الحصين بسورا ء ورب القصر المنيف المشيد
فرمى شخصه فاقصده الدهـ ـر بسهم من المنايا سديد[١٤٤]

وقد اتخذت المعانى التى صورها هؤلاء الشعراء غير المجان عن الموت ، شكل العظات المباشرة ، والنصائح الموجهة ، يسردها صاحبها سردا ، لا ترتبط بتجربة ، يقدم الوعظ من خلالها لغيره ، ويكثر من التضمين لآيات القرآن الكريم ، ويذكر حقائق مؤكدة ليست فى حاجة إلى تأكيد ، بينما كانت رؤية المجان التائبين للموت تختلف عن نظرة هؤلاء ، فنظرة المجان التائبين نظرة مثقلة بالخوف من عذاب الله ، تدعو إلى تصحيح المعوج ، تعتذر وتندم وتبكى ، وتستبدل المجون بالزهد ، وتكثر من الدعوة إلى التقوى للتكفير عن الخطايا .

إن المعانى التى دارت حولها رؤية المجان التائبين عن الموت ، تتفق فى كثير من عناصرها الأساسية بينهم ، ومن هذه العناصر المشتركة ذكر حقيقة الموت ، وحقيقة البعث بعد الموت ، والدعوة إلى الصلاح والتقوى ، والبكاء على الأحبة الراحلين ، والشعور بالخوف والندم والإحساس بالذنب والخوف من عقاب الله والطمع فى عفوه .

أما عن صورة القبر فى زهد المجان ، فقد انفرد بها الشاعر أبو العتاهية ، فبدأ من أكثر الشعراء تصويرا للقبور وساكنيها ، وذلك يتفق مع ما عرف عنه من نهجه فى زهدياته وفى مواعظه من رسم للصورة التى تخيف وترهب وتفزع ، وتدعو إلى هجر الآمال ونبذ الأحلام .

وقد أورد الحصرى القيروانى فى زهر الآداب عبارات وصورا عن القبور جاء فيها ، ساكنها مغترب ، ومحلها مقترب ، أهل هذه المنازل متشاغلون ، لا يتواصلون تواصل الأخوان ، ولا يتزاورون تزاور الجيران »[١٤٥] .

وقد استغل أبو العتاهية بعض هذه الصور التى كانت شائعة فى عصره فى رسمه ، فقال :

إذا ما خليلى حل فى برزخ البلى فحسبى بـه نـأيـا وبعـد لقـاء
ازور قبـور المترفـين فـلا أرى بهـاء ، وكانـوا قبل أهـل بهـاء
يعز دفاع الموت عن كل حيلة ويعيا، بداء الموت كل دواء[١٤٦]

ويظهر من شعر أبى العتاهية ، فى تصويره للقبور ، أنه كان كثير التردد عليها ، يزورها بين الحين والآخر ، ليتعظ بها ، ويتزود من رؤيتها ، ويصوغ معانيه التى ينظمها فى شعره ، ويصور قبور المترفين المنعمين فى حياتهم ، ويركز أبو العتاهية فى تصويره للقبور ، ونادرا ماصور قبور الفقراء والمساكين ، فقد أراد الشاعر أن يتخذ من صورة القبر وسيلة يقدم عن طريقها العظة للغير ، ويدعوهم إلى الزهد فى الشهوات ، وإلى الزهد فى التنافس على السلطات ، فإن النهاية

---

(١٤٤) ابن المعتز / طبقات الشعراء / ١١٩ .
(١٤٥) الحصرى القيروانى - زهر الآداب - جـ ٢ ص ٨٠٤ .
(١٤٦) ديوان أبى العتاهية / ١٣ .

واحدة ، فيصور قبور أهل الملك والنعيم فى الدنيا ، فى قوله :

زرت القبور قبور أهل الملك فى الـ ـدنيا ، وأهل الرتع فى الشهوات
كانوا ملوك مآكل ، ومشارب وملابس ، وروائح ، عطرات
فإذا بأجساد عرين من الكسا و بأوجه فى الترب متعفرات
لم تبق منها الأرض غير جماجم بيض ، تلوم وأعظم نخرات
ان المقابر ما علمت لمنظر يفنى الشجا ، ويهيج العبرات
سبحان من قهر العباد بقدره بارى السكون ، وناشر الحركات[١٤٧]

ويستمر أبو العتاهية فى مقارنته بين حال ساكنى القبور قبل الممات وبعد الممات ، ليسمع الأحياء منهم ، ويعظهم بالدروس والمصير الذى وصل إليه ساكنوا القبور ، ولا يصور الشاعر القبر من خارجه ، أو يصوره رمزا للموت ، وإنما يصور القبر من داخله ، وكأنما القبر مفتوح أمامه ، وكأنه يرى ما بداخله ، ويركز فى حديثه على تصوير تلك الطائفة المنعمة بحياتها ، غير الزاهدة ، وغير القانعة ، ضعيفة الايمان ، فكم كانت تستمتع فى حايتها بالمأكل الطيب ، والمشرب الطيب ، والملبس اللين ، وتنعم بالروائح العطرة ، ثم اضحوا الآن فى قبورهم اجسادا عارية ، لا كساء عليها ، وأمست وجوههم متعفرة بتراب القبر ، ولم يبق من هذه الأجساد غير جماجم وأعظم نخرة .

ويتخذ أبو العتاهية من تصويره للقبر سبيلا إلى تسبيح ربه وحمده ، ذلك الإله الذى قهر العباد بقدره ، وهو المبدى وهو المعيد .

ويردد أبو العتاهية هذه المعانى والصور كثيرا فى شعره ، ويصور القبور ، ويصور ساكنيها ، ويختص فى تصويره بأصحاب الجاه والسلطان فى حايتهم ، ولا يهتم بالموتى الفقراء ، فهم زهاد فى نظره بطبيعتهم ، وهم متهورون فى حياتهم ، لا يتسلطون ولا يتحكمون ، وهذه الرؤية تنم عن أشياء كثيرة كائنة فى نفس أبى العتاهية ، فقد اتخذ الشاعر من صورة القبر وسيلة لنقد المجتمع ، وتوجيه اللوم إلى القائمين على أمره ، واتخذ من القبور أداة يعلن عن طريقها الدعوة إلى المتحكمين والمترفين كى يزهدوا وكى يتوبوا ، وليعطفوا على الفقراء والمساكين من حولهم ، فقد اتخذ أبو العتاهية من صورة القبر أسلوبا للرفض والاحتجاج على المجتمع وعلى بعض فئاته الخاصة ، وبعض هيئاته .

وكان الأولى بالشاعر ، مادام يصور القبر وسكانه ، ألا يفرق بين الغنى والفقير ، وأن يكون حديثه موجها للجميع ، لا يخص بحديثه طائفة معينة هم سكان القبر من الملوك والمترفين قبل موتهم .

---

(١٤٧) ديوان أبى العتاهية / ٧٧ .

ومن النادر أن يلجأ أبو العتاهية إلى توجيه العظة المباشرة ، من خلال صوره هذه ، ولكنه كثيرا ما يصور دار الموتى ، ودار الفناء ، وينصح بالزهد فى عشق الدنيا ، فإن حلاوتها ممزوجة بمرارة ، فيقول أبو العتاهية :

لعمرك ، ما الدنيا بدار بقاء ... كفاك بدار الموت دار فناء
فلا تعشق الدنيا ، أخى ، فإنما ... يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة ... وراحتها ممزوجة بعناء .
فلا تمشى يوما فى ثياب مخيلة ... فإنك من طين ، خلقت ، وماء[148]

ومن مضامين صورة القبر فى زهديات أبى العتاهية ، تصويره للموت ، وقرب النهاية ، فيصور الشاعر أنفاس المرء المعدودة ، المحسوبة عليه ، وإن كل نفس يخرجه ، ينقضى معه جزء من حياته ، فيقول :

حياتك أنفاس تعد ، فكلما ... مضى نفس منها نقصت بها جزء
يميتك ما يحييك ، فى كل ساعة ... ويحدوك حاد ما يريد بك الهزء[149]

ومن المضامين التى اشتملت عليها صورة القبر فى شعر أبى العتاهية ، دعوته إلى زيارة القبور ، والنداء بصوت عال على ساكنيها ، وإذا أجابوا يسألهم عن الملوك فى الأمس ، أين هم ؟ لقد صاروا جميعا رفاتا فى التراب ، فيقول :

إيت القبور ، فنادها أصواتنا ... فإذا أجبن ، فسائل الأمواتا
أين الملوك بنو الملوك ، فكلهم ... أمسى ، وأصبح فى التراب رفاتا[150]

ويصور أبو العتاهية ، ما أصاب أهل القبور ، بعد الجزالة والسرور ، وبعد التنعم بالقصور ، لقد أضحوا تحت الثرى بين الصفائح والصخور ، فيقول :

أهل القبور أحبتى ... بعد الجذالة والسرور
بعد الغضارة ، والنضا ... رة ، والتنعم ، والحبور
بعد المشاهد ، والمجا ... لس ، والعساكر ، والقصور
بعد الحسان المسمعا ... ت ، وبعد ربات الخدور
أصبحتم ، تحت الثرى ... بين الصفائح والصخور
أهل القبور إليكم ... لابد ، عاقبة الأمور[151]

ويكثر أبو العتاهية من حواره مع القبر ، يسأله ويستمع إلى جوابه ، يسأل عمن حل به

---

(١٤٨) ديوان أبى العتاهية / ١٢ .
(١٤٩) ديوان أبى العتاهية / ١٤ .
(١٥٠) ديوان أبى العتاهية / ٨٣ .
(١٥١) ديوان أبى العتاهية / ١٦ .

وعن حالهم ، ويجيبه بأن وجوههم أمست متعفرة ، وريحهم تؤذى بعد أن كانت عطرة ، وأن أجسادهم المنعمة قد تآكلت ، ولم يبق منها غير جماجم وأعظم نخرة ، ونرى مثل هذا الحوار فى قوله :

إنى سألت القبر : ما فعلت ... بعدى وجوه فيك منعفرة ؟
فأجابنى : صيرت ريحهم ... تؤذيك ، بعد روائح عطره
وأكلت أجسادا منعمة ... كان النعيم يهزها ، نضرة
لم أبق غير جماجم عريت ... بيض تلوح وأعظم نخره[١٥٢]

وتكاد تتفق عناصر صورة القبر فى زهديات أبى العتاهية فى كثير من أصولها ، ونادرا ما يدعو إلى التقوى أو إلى العمل الصالح فى هذه الصورة ، فلم تكن صورة إيجابية ، وكان إهتمامه الأول بتصوير مصير المنعمين فى الحياة ، والشاعر حين يطلب زيارة القبور ، يؤكد على تصوير الأجساد البالية ، والعظام النخرة ولكنه لم يركز على الدروس المستفادة من هذا التحول ، ومن هذه الصورة ، غير ذكره حقيقة الموت ، نهاية كل حى ، فلا داعى للحرص ، ولا داعى للتعلق بالآمال ، فالموت بالمرصاد ، فيقول أبو العتاهية :

نفسى زورى القبور واعتبريها ... حيث فيها لمن يزور عظات
وانظرى كيف حال من حل فيها ... بعد عز ، وهم بها أموات
حرصوا ، أملوا ، كحرصك يا نفـ ... ـس ، ووافاهم الحمام ، فماتوا[١٥٣]

لقد نسى أبو العتاهية فى تصويره ، مصير الروح الصاعدة إلى ربها ، ونسى الجزاء الذى ينتظرها من نعيم أو عقاب ، عند خالقها ، وكأنه لا يرى غير تلك الأجساد المتعفرة ، والجماجم العارية ، وكأن الأجساد فى قبورها عذبت بعريها وبجفاء الأصحاب لها ، بعد نعيمها وأنسها ، وهذا مصير الأجساد جميعها أجساد الفقراء والأغنياء ، وأجساد الزهاد أو المجان ، فما بال أبو العتاهية لا يهتم بغير صورة الأجساد فى القبور ، وأجساد المترفين دون غيرهم !

ويرى أبو العتاهية نفسه وقد دفن فى قبره ، يزار فلا يدرى هل زاره أحد ؟ ، ويجفى فلا يدرى من الذى جفاه ؟ فيصور قبره يوم يهيل أصحابه الترب فوقه ، فيقول :

كأنى بأصحابى على جانبى قبرى ... يهيلون من فوقى وأعينهم تجرى
عفا الله عنى يوم أصبح ثاويا ... أزار فلا أدرى ، وأجفى فلا أدرى[١٥٤]

فقد نظر أبو العتاهية تحت قدميه ، ولم يرفع رأسه ، فاتسمت نظرته بالبؤس والشقاء ،

---

(١٥٢) ديوان أبى العتاهية / ٢٠ .
(١٥٣) ديوان أبى العتاهية / ٩٧ .
(١٥٤) الآمالى . أبى عبد الله حمد العباسى اليزيدى - عالم الكتب - بيروت - ١٣٥ .

والخوف والرهبة ، وهو يصور مصير المنعمين ، ليزعجهم بهذه اللوحات القائمة ، التى رسمها عن القبر وعن ساكنيه ، ولم يرفع أبو العتاهية بصره إلى أعلى ليرى المتقين وهم « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » ، ولم ير الولدان وهم يطوفون عليهم ، ولم يرسم أو يتخيل بعض لوحات النعيم ، مصير الأتقياء الصالحين ، ولم يصور منازل المتقين فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، بل جعل أبو العتاهية لوحاته كلها حول ساكنى القبور الذاهبين إلى النار والجحيم ، وأخذ يدعو إلى اليأس من التعلق بالأمل ، وإلى نبذ العمل ، وترك الحرص ، والتخلى عن التنافس ، والقعود عن الكفاح ، وأخذ يرسم صورة القيامة وأهوالها وروعاتها ، فيقول :

وهذى القيامة قد أشرقت ... على العالمين لميقاتها
وقد أقبلت بموازينها ... وأهوالها ، ثم روعاتها[١٥٥]

وأين اللذة النفسية ، أو الاستمتاع الفنى الذى ينعم به القارىء ؟ حين يدعوه أبو العتاهية إلى عدم العمل ، والتخلى عن الأمل ، فلا داعى للزواج أو التناسل ، ما دام الجميع إلى الموت ، ولا داعى إلى البناء والعمران ما دام الكل إلى خراب ، فيقول أبو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبنى ونحن إلى تراب ... نصير كما خلقنا من تراب
الا يا موت لم أر منك بدا ... اتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشسيبى ... كما هجم المشيب على شبابى
وهذا الخلق منك على وفاة ... وأرجلهم جميعا فى الركاب[١٥٦]

ولم يخرج أبو العتاهية فى تصويره للقبور التى أكثر من تصويرها عن مضامينه المشتركة بين كل هذه الصور ، فلم يدع إلى العمل الصالح أو إلى التقوى ، ولكنه اهتم بتصوير الأجساد بداخل القبور عن تصوير ما وراء الموت وما يجب على الانسان من عمل يعمله ، يؤدى به إلى خير المقام بعد موته ، وها هو أبو العتاهية يمر بالقبور ، ويمر الأحياء بالقبور ، فيطلب منهم إلقاء السلام والتحية على ساكنيها ، فلا مجيب ولا سامع ، فيقول أبو العتاهية :

أخوى مرا بالقبور ... وسلما قبل المسير
ثم أدعوا من عاداها ... من ماجد قوم فخور
ومسود رحب الفناء ... أغر كالقمر المنير
يا من تضمنه المقابر ... من كبير أو صغير
هل فيكم أو منكم ... من مستجار أو مجير

---

(١٥٥) ديوان أبى العتاهية ٩٩ .
(١٥٦) ديوان أبى العتاهية ٩٧ .

أو ناطق أو سامع يوما بعرف أو نكير[١٥٧]

لقد عمد أبو العتاهية إلى الترهيب أكثر من الترغيب ، وصور أهوال القبر ولم يعن بتصوير نعيم الجنات ، وكان فى تصويره لا يجنح إلى الصور المركبة أو إلى الأخيلة القريبة أو الألفاظ الجزلة بل كان كعادته يختار ما سهل من اللفظ وما خف من الخيال والتصوير ، ليقنع وليؤكد ، وليرهب ويخيف .

وشك بعض معاصريه فى زهدياته هذه ، كما جاء فى الأغانى وفى زهر الآداب وفى معجم الأدباء[١٥٨] ، وكان شكهم مستندا على مجونة فى صدر شبابه ، وعلى ما عرف عنه من حرص وبخل شديدين ، فكيف كان يدعو إلى التعفف والتزهد فى حطام الدنيا وهو على هذه الهيئة والصورة .

والشاعر إذا كان قد مجن ثم زهد فهذه حال أغلب الشعراء ، وهذا لب موضوع البحث ، وقد اتخذ أبو العتاهية من زهده منهجا فنيا قبل أن يتخذ منه منهجا عقائديا - كما سبق توضيح ذلك - فكان يشبع غروره الفنى ، الذى لم يستطع إشباعه فى فنون الشعر الأخرى ، بهذا اللون من الشعر .

وقد أفرط أبو العتاهية فى دعوته إلى نبذ الدنيا وهجر حطامها ، وعدم التعلق بآمالها ، فدفعه ذلك إلى أن يصور القبر ، ويصور حال ساكنيه ، حتى غدت صورة القبر فى زهديته من أبرز تلك الصور التى اهتم بها الشاعر . ونرى أنيس المقدسى يلومه فى ذلك بقوله « ولو أننا جارينا شاعرنا فى أقواله ، وقمنا بما يطلبه فى عظاته لتحتم علينا أن نقف كل جهاد وكل سعى ، ونعيش عيشة الخمول »[١٥٩] .

وقد عاب شعر أبى العتاهية - أو عاب شعر الزهد عنده - كثرة الساقط والمرذول ، كما أنه كان يستمد كثيرا من معانيه ، من تلك الأقوال المأثورة ، والكلمات المشهورة التى تداولها الناس فى عصره ، ويقول المبرد فى الكامل « إن أبا العتاهية كان يستمد معانيه من الأخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة »[١٦٠] .

ولقد صاغ أبو العتاهية كثيرا من شعره عن الموت وعن القبر فى سرعة خاطر دون تدقيق فنى فأحدث له نوعا من الركاكة فى التعبير ، وكان يقول : « لو شئت أجعل كلامى كله شعرا لفعلت »[١٦١] وقد عيب فى شعره هذا ما عرف بالتكرار وبالحشو ، وهذا ما يهتم به البحث فى دراسته الفنية لشعر الزهد عند بعض المجان العباسيين .

(١٥٧) ديوان أبى العتاهية / ١٠٢ .
(١٥٨) الأغانى ٣ / ١٣٣ - زهر الآداب ٣ / ٢٢٥ - معجم الأدباء ٤ / ٢٤٨ .
(١٥٩) أنيس المقدسى - أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى - ١٦٠ .
(١٦٠) المبرد - الكامل - ١ / ٢٣٨ .
(١٦١) الأصفهانى - الأغانى ٣ / ١٣١ .

ومن أعظم العيوب التي وجهت إلى شعر أبي العتاهية في الموت والقبر « أن شعره كان في الموت دون الآخرة »[١٦٢] وهذا ليس بصحيح ، فلا مجال للشك في إيمانه بالبعث ، ولا مجال للشك في تصديقه بالآخرة ، فقد ذكر أبو العتاهية الحشر والبعث والآخرة في بعض شعره ، ولكنها قليلة ، بل قليلة جدا إذا قيست بصوره الأخرى عن الموت وعن القبور .

وأبو العتاهية يقول عن يوم الحساب مصورا عرض ذنوب الانسان عليه وعرض حسناته أيضا ، فهو إما إلى النعيم وإما إلى العذاب ، وكيف يعتذر الانسان عن إسرافه على نفسه أمام الله سبحانه وتعالى ، فيقول :

سأسأل عن أمور كنت فيها ... فما عذرى هناك وما جوابى
بأية حجة احتج يوم الحسا ... ب إذا دعيت إلى الحساب
هما أمران يوضح عنهما لى ... كتابى حين أنظر فى كتابى
فإما أن أخلد فى نعيم ... وأما أن أخلد فى عذاب[١٦٣]

ويصور أبو العتاهية - أيضا - يوم البعث حين ينادى من فى القبور ، إلى يوم الحصاد ، فيقول :

غدا ينادى من القبور إلى ... هول حساب عليه يجتمع
غدا توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا[١٦٤]

ويشير إلى يوم الحساب فى قوله :

ليعلم كل ذى عمل ... بأن الله سائله
فأسرع فأنذا بالمشـ ... ـير قائله وفاعله[١٦٥]

وهو يشير إلى يوم الحساب ، يوم يجازى كل إنسان على عمله ، وهو لا ينسى الموت فى كل صوره هذه ، فقد أكثر من الحديث عن الموت والقبر أكثر من الحديث عن الحساب ، مما حدا بالبعض إلى اتهامه بانكار القيامة ، وكثيرا ما كان يمزج أبو العتاهية الموت بالحياة ، والفناء بالنعيم والسرور ، فيقول :

نلهو وللموت ممسانا ومصبحنا ... من لم يصبحه وجه الموت مساه
ما أقرب الموت فى الدنيا وأبعده ... وما أمر جنى الدنيا وأحلاه[١٦٦]

---

(١٦٢) الأصفهانى - الأغانى ٣ / ١٤١ .
(١٦٣) ديوان أبى العتاهية ٩٦ .
(١٦٤) ديوان أبى العتاهية ١٢٣ .
(١٦٥) ديوان أبى العتاهية ١٦٣ .
(١٦٦) ديوان أبى العتاهية ١٨٥ .

ولم ينس أبو العتاهية أن يصور موت الانسان ، وبكاء أهله عليه ، وخروجهم كى يودعوه التراب ، ثم ينسى من بعد ذلك ، وكأنه لم يكن ، فيقول :

بينا الشقيق على إلف يسربه إذ صار أغمضه يوما وسجاه
يبكى عليه قليلا ثم يخرجه فيسكن الأرض منه ثم ينساه
وكل ذى أجل يوما سيبلغه وكل ذى عمل يوما سيلقاه[١٦٧]

وكل هذا يؤكد دور أبى العتاهية الخاص أو المميز فى انقطاعه - فى جزء كبير من زهدياته - إلى تصوير الموت والمقابر ، ولم ينازعه أحد من هذه الطائفة من الشعراء التى خضعت للدراسة فى ذلك - وإذا كان شعراء آخرون قد تميزوا عنه فى تصوير عناصر أخرى من عناصر زهد المجان كالتوبة أو الاستغفار أو طلب العفو أو الحكمة ، فإن أبا العتاهية قد انفرد بالوقوف على المقابر ، لينشد نفحات الموت الحزينة ، ونفحات الآخرة ، التى يقول عنها أنيس المقدسى « برغم أنه يكررها ويرجعها على وتر واحد نجد فيها إيقاعا يلذ نفوسنا ويؤثر فيها »[١٦٨] .

وأية لذة فى تلك النفحات ، التى تلذ الأنفس ، وهو يصور القبور والعظام والتراب والأجساد البالية ، والجماجم وغير ذلك .. إنه لم ينجح فى أن يستغل ذلك فى العمل والتقوى بل كان داعيا إلى ترك ما فى اليد انتظارا لهذا اليوم ، فدعا إلى الخراب وعدم البقاء ، وصور نفسه وهو داخل قبره ، وأعطى ظهره للدنيا ، ولم يعمل كأنه يعيش أبدا ، واستقبل القبر بوجهه وبنفسه ، فأكثر من صور الخوف والترهيب .

لقد كان أبو العتاهية فى تصويره للموت وللقبور متشائما غاية التشاؤم ، سلبيا غاية السلبية ، لم يكن متفائلا ولم يكن إيجابيا ، وقد ابتعد عن الإسلام وعن دعواه ، فالاسلام لم يدع إلى هجر الدنيا ، والإسلام لم يدع إلى عدم التعلق بالأمل ، وعدم العمل من أجل تحقيقه ، فهو لم يعمل للدنيا - كما أشار الحديث الشريف - كأنه يعيش أبدا ، بل كان فيها كأنه يموت غدا ، بل يموت اللحظة .

ولم يقتصر تصوير القبور فى الشعر على أبى العتاهية ، فقد أسهم فى ذلك شعراء غيره ، على مر العصور الأدبية ، وباختلاف الطبائع والأمزجة ، وبتنوع المذاهب والأشربة ، ولكن البحث قد نهج على أن يستهل المضمون بأبرز الشعراء الذين يصورونه ثم من هم أقل منهم شهرة وذيوعا فى تصوير هذه المضامين ، دون النظر إلى الترتيب التاريخى ، أو السبق الزمنى فى الظهور فى عصر الشاعر .

فقد صور بعض الشعراء القبر ، وصور بعضهم أيضا قبره بخاصة ، وأمر بعض الشعراء بأن

---

(١٦٧) ديوان أبى العتاهية ١٨٦ .
(١٦٨) د . أنيس المقدسى أمراء الشعر العربى ١٧٢ .

يكتب على قبره أبياتا من نظمه ، ونظم بعض الشعراء أبياتا دفعوا بها إلى المقربين إليهم كى يندبوهم حين موتهم .

ولكن أبا العتاهية – كما وضح – استأثر بهذه الصور ، فلم يلحق به شاعر فى تصوير هذه اللوحات ، التى كانت تحمل سمات خاصة بفكرة وبنفسيته وبفنه ، فقد خلت من الدعوة الايجابية ، وخلت من الدروس المستفادة ، ومن العظات المؤثرة .

إن بعض شعراء الجاهلية ومنهم طرفة بن العبد قد رسم صورة القبر ، فى معلقته المعروفة :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد[١٦٩]

وجاءت صورة طرفة الجاهلى للقبر أكثر إيجابية ونقاء من صورة أبى العتاهية المسلم ، فكانت دعوة طرفة ، تصلح للحياة وللأحياء ، ودعوى إلى الكرم ونبذ البخل ، ودعوة إلى العطف وإلى الإنفاق وفعل الخير ، وإكرام الضيف والترحيب به ، كانت دعوة طرفة فى تصويره للقبر تدور حول التخلى عن الحرص والبخل وإلى تجنب اكتناز المال ، فإن قبر الكريم لا يختلف عن قبر البخيل بماله ، فكل قبر عليه كومة من التراب وبعض الصفائح المنضدة ، فيقول طرفة بن العبد :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكا لطول المرخى وثنياه باليد[١٧٠]

وبشير بشار إلى القبر إشارات خاطفة ، فقد رأى أهل القبور يسرون ويسعدون إذا بعثوا ولمسوا فضل المهدى العباس وأعماله ، فيقول بشار فى مدحه للمهدى :

وبشرت أرضنا السماء به وسر أهل القبور ما عقبا
لله أهل القبور لو نشروا لاقوا نعيما واستحلموا أدبا[١٧١]

وحديث بشار عن القبور عابر ، لم يكن فى وعظ أو زهد لم يعرفهما ، وإنما جاء حديثه فى مدحه وتملقه للخليفة المهدى ، حتى يغطى مواقفه الفاجرة ، فيأتى بمثل هذه الصورة التى يمدح بها الخليفة ، محاولا استرضائه ..

---

(١٦٩) شرح المعلقات العشر – الزوزنى – معلقة طرفة بن العبد . جـ ١ صبيح – القاهرة .
(١٧٠) معلقة طرفة بن العبد – المعلقات العشر – الزوزنى – جـ ١ صبيح – القاهرة ص ٧٤ .
(١٧١) ديوان بشار بن برد جـ ١ ص ٣٤٦ .

والشاعر أبو نواس ، جاء تصوير القبر فى شعره فى مواضع قليلة بل نادرة ، فقد صور ظلام الحفر بعد ضوء القصور ، فنراه يقول :

أين من كان قبلكم من ذوى البأس والخطر
سائلوا عنهم المدا ئن واستخبروا الخبر
سبقونا إلى الرحيـ ـل وأنا على الأثر
من مضى عبرة لنا وغدا نحن معتبر
إن للموت أخذة تسبق اللمح بالبصر
قد نقلتم من القصـ ـر إلى ظلمة الحفر
رحم الله مسلما ذكر الله فازدجر
رحم الله مسلما سمع الوعظ فانتهر
رحم الله مسلما خاف واستشعر الحذر[١٧٢]

وأبيات أبى نواس السابقة ، نظمها فى حالة زهده ، فخص مقطوعة بها ، ولم يشرك فيها معنى آخر ، وهى تمثل اتجاهه الذى يختلف مع اتجاه أبى العتاهية ، فلم يظهر خوفا أو فزعا ، ولم يدع إلى هجر الأمل ونبذ العمل ، ولم يصور سكان القبور وعظامهم النخرة ، بل أشار أبو نواس إشارة سريعة إلى انتقال سكان القصور العامرة إلى ظلمة الحفر .

ويعلق الأصمعى على أبيات أبى نواس ، بقوله : « ما عبر أحد عن نعت دار البلى عبارة أبى نواس فى هذه الأبيات ، بل سمعت الرقاشى يعبر عنها نثرا بأحسن عبارة ، وذلك أنى رأيته واقفا على مقبرة وهو يقول : يا أيتها الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، التى ينطق الخراب فناؤها ، ويشتد فى التراب بناؤها ، فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، لا يتواصلون ، ولا يتزاورون ، تزاور الجيران ، قد طحنهم بكلكله البلى ، وأكلهم الجندل ، فعليهم منا الترحم والسلام ، ومن ربهم المغفرة والإكرام »[١٧٣] .

ومن الطبيعى أن هناك صورا أخرى حول القبور رسمها شعراء غير تلك الطائفة التى يعنى بها البحث وهى طائفة المجان الذين أقلعوا عن مجونهم ، وأنابوا إلى ربهم ، لتعد صورة الموت والقبر من الصور البارزة التى عنى بها بعض الشعراء المجان حين زهدوا ، ولا سيما (الشاعر أبو العتاهية) .

---

(١٧٢) ديوان أبى نواس ٩٨٠ .
(١٧٣) ديوان أبى نواس ٩٨٠ .

٥ - الدعوة إلى الصبر والقناعة

(أ) الصبر

حمل شعر الزهد عن المجان ، الدعوة إلى التحلى ببعض القيم الأخلاقية والمبادىء الإسلامية ، لتحل محل الدعوة إلى الشراب واللذة ، وقد أخلص الشعراء فى دعوتهم ، وأخلص بعضهم فى تطبيق دعوته على نفسه ، قبل أن يدعو الآخرين إليها .

ولم يكن الشعراء فى دعوتهم هذه وعاظا أو ناصحين ، ولكنهم كانوا مجربين ، عبروا التجربة فعبروا عنها ، وخاضوها فعرفوا ثمارها ، وتفاخروا بحصيلتهم الأخلاقية التى نعموا بها ، فجاهروا بها ، ودعوا إليها .

ومن أبرز هذه القيم التى دعا الشعراء - (المجان بعد زهدهم) - إليها قيمة الصبر ، وتحمل المصائب ، والدعوة إلى الصمود لنوازل الدهر ، وقد استمدوا هذه القيم من محنهم الخاصة التى مرت بهم ، فصمدوا أمامها ، وتصدوا للدهر ، وتحملوا نوازله ، فصبروا على تقلباته ، فلم يجزعوا ، وكان حديثهم عن الصبر حديث المجرب ، الذى لم يجد سلاحا غير سلام الإيمان ، والصبر على كوارث الزمان .

وقد كان مصدر هذه القيمة مصدرا إسلاميا بحتا ، فقد أفاد الشعراء من آيات القرآن الكريم ، ومن أقوال الرسول عليه السلام ، عن الصبر والصابرين ، وعن الجزاء المعد لهم . فصاغ الشعراء كثيرا من مضامين الصبر من هذا المعين الاسلامى ، الذى لا ينضب ، وما أكثر آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى الصبر ، وإلى التحلى به ، والتى تبشر الصابرين ، بغير الجزاء والنعيم ، والتى ترقى بهم إلى أعلى الدرجات مع الأنبياء والشهداء والصديقين .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أحاديث كثيرة عن الصبر ، منها ما رواه ابن عمر ، أنه قال « من كنوز البر كتمان المصائب » وقوله عليه السلام - أيضا - « ليعز المسلمين فى مصائبهم المصيبة بى »[١٧٤] وقال عليه الصلاة والسلام « من عظمت مصيبته فليذكر مصيبتى ، فإنها ستهون عليه مصيبته » وقال عليه السلام - أيضا - « تنزل المعونة على قدر المئونة ، وينزل الصبر على قدر المصيبة » وفى الصبر يقول صلى الله عليه وسلم - أيضا - « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ومما روى فى بهجة المجالس من أحاديث الصبر قوله عليه

---

(١٧٤) بهجة المجالس ٣٤٨ .

السلام : « ثلاث من رزقهن فد رزق خير الدنيا والآخرة ، الدعاء فى الرخاء ، والرضا بالقضاء والصبر عند البلاء »[١٧٥] .

ومن الأقوال المأثورة عن الصبر ، قول على - كرم الله وجهه - « الصبر من الايمان ، بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا جسد له ، وقال محمد بن على بن الحسين « الصبر صبران ، فصبر عند المصيبة حسن جميل ، والصبر عما حرم الله أفضل »[١٧٦] .

والشاعر أبو العتاهية يقول فى الصبر :

اصبر لكل مصيبة ، وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد[١٧٧]

ويصور جزاء الصابرين فى قوله :

اذكر معارك أفضل الذكر لا تنس يوم صبيحة الحشر
يوم الكرامة للألى صبروا والخير عند عواقب الصبر[١٧٨]

ويربط أبو العتاهية بين الصبر والموت - كعادته - فيقول :

أو ما ترى أن المصائب جمة وترى المنية للعباد بمرصد[١٧٩]

ولم ينس أبو العتاهية الموت فى وعظه للآخرين ، محاولا إدخال الصبر على نفوسهم ، فقد دخل أبو العتاهية على الفضل بن الربيع يعزيه بإبنه العباس ، فقال : « الحمد لله الذى جعلنا نعزيك عنه ، ولم يجعلنا نعزيه عنك فدعا بالطعام فأكل ، وقد كان قبل ذلك امتنع عن الأكل »[١٨٠] .

والشاعر ابن المعتز يرى فى تحمل الرزايا والصبر عليها ضياعا لشدة المحنة ، وتخفيفها لوقعها ، حتى يكاد الصابر لا يفرق بين الرخاء والشدة ، فيقول :

لو أطقنا الصبر عند الرزايا ما عرفنا شدة من رخاء[١٨١]

ويؤمن ابن المعتز بقضاء الله وبقدره ، ويسلم لما كتب عليه تسليما ، ويشكر الله على نعمه ، فيقول :

أنت علمتنا على النعيم الشكر وعند المصائب التسليما

---

(١٧٥) بهجة المجالس ٣٤٩ .
(١٧٦) بهجة المجالس ٣٥٠ .
(١٧٧) ديوان أبى العتاهية ١٢٩ .
(١٧٨) ديوان أبى العتاهية ١٣٢ .
(١٧٩) ديوان أبى العتاهية ١٣٣ .
(١٨٠) بهجة المجالس ٣٦٠ .
(١٨١) ديوان ابن المعتز ٣٧٦ .

قد رضينا بأن نموت ونحيا إن عندى فى ذاك حظا عظيما[١٨٢]

ويقول ابن المعتز عن الصبر -أيضا- .

صبرا ، فديناك إن الصبر غايتنا وإن طوينا على حزن وتهيام[١٨٣]

وعن الصبر ، يقول أبو نواس ، فى بعض طردياته ، مصورا الفخ والوقوع فيه :

فاعمل الفكر قليلا فلا يقبله الرحمن ما فكرا
فاصبر إذا الدهر نبا نبوة فمحنة العاقل أن يصبرا
فالرزق والحرمان مجراهما بما قضى الله وما قدرا[١٨٤]

ولبشار قول فى الصبر ، جاء فيه :

صبرت على الجلى ولست بصابر على مجلس فيه على زراء
وأنى لأستبقى بحلمى مودتى وعندى لذى الداء الملح دواء[١٨٥]

والشاعر محمود الوراق يدعو إلى التحلى بالصبر ، ففى الصبر تسرية للهم ، فيقول :

تعز بحسن الصبر عن كل هالك ففى الصبر مسلاة الهموم اللوازم
إذا أنت لم تسل اصطبارا وحسبة سلوت على الأيام مثل البهائم[١٨٦]

ويبدو تأثر الوراق فى قوله السابق بقول لأبى تمام ، جاء فيه :

أتصبر فى البلوى عزاء وحسبة فتؤجر أم تسلو سلو البهائم[١٨٧]

وينسب للشاعر عبد الصمد المعذل قول فى الصبر ، جاء فيه :

إن يكن ما به أصبت جليلا فذهاب العزاء ، فيه أجل[١٨٨]

وللضبى البرمجى قوله :

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب[١٨٩]

والشاعر محمد بن يسير يطرد اليأس من قلبه ، ويدعو إلى الصبر ، فالصبر باب الفرج ، ويفتح كل ما غلق ، فيقول ابن يسير :

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طورا وطورا تركب اللججا

---

(١٨٢) ديوان ابن المعتز ٥٠ .
(١٨٣) ديوان ابن المعتز ٥٠٣ .
(١٨٤) ديوان أبى نواس ٣٠١ .
(١٨٥) ديوان بشار جـ ١ ص ١٥٣ .
(١٨٦) بهجة المجالس ٣٠٤ .
(١٨٧) بهجة المجالس ٣٥٥ .
(٨٨) بهجة المجالس ٣٠٤ .
(١٨٩) بهجة المجالس ٣٥٩ .

كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
لا تيأس وإن طالت مطالبته إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا
ولا يغرنك صفو أنت شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا[١٩٠]

ويدعو ابن يسير فى أبياته فى الصبر إلى التمسك بالأمل ، وإلى عدم التخلى عن العمل ، وإلى محاولة تحقيق الهدف ، بعد أن يأتى الفرج ، ويبدل عسير الأمر يسرا ، ويدعو - أيضا - إلى عدم اليأس ، وإن طال الاحساس به ، وإلى أن يكون المرء حكيما عاقلا متزنا ، يقدر لقدمه - قبل الخطو بها - موضعها ، ولا يغتر بالحياة الصافية ، فربما يمتزج الصفو بالتكدير .

والمعروف أن ابن يسير قد تخطى المجون إلى الزهد ، وقد أكثر من شعر التوبة والاستغفار ويبدو أنه تأثر بعض الشىء بأبى العتاهية ، حين ردد بعض المعانى التى ألح عليها أبو العتاهية ، ولكن ابن يسير يختلف مع أبى العتاهية ، فى النظرة إلى بعض هذه الزوايا التى اشتركا فيها ، فقد تحدث ابن يسير عن الموت والقبور فى حديث يختلف عن أبى العتاهية ، فهو يكرر معنى القبور والموت والحساب ، ولكنه لا ينتظر إليه من داخله كما فعل أبو العتاهية ، ولم يرهب الآخرين بصوره ، بل أخذ بعضها أحيانا بروح متفائلة حين يصور مثل هذه المعانى .

ومن قول ابن يسير :

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد
هم جيرة الأحياء ، أما محلهم فدان ، ولكن اللقاء بعيد[١٩١]

ويصور إيمانه بالحساب والبعث ، فهو إما إلى الجنة أو إلى جهنم :

عالما لا أشك أنى إلى عد ن إذا مت أو عذاب سعير[١٩٢]

ويرى ابن يسير نفسه وهو محمول إلى قبره ، ويتخيل ذلك ، فيقول :

كلما مر بى على أهل ناد كنت حينا بهم كثير المرور
قيل من ذا على سرير المنايا ؟ قيل هذا محمد بن يسير[١٩٣]

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الصبر ، ودعوا إليه ، الشاعر الشريف الرضى ، وصبر الشريف يختلف عن صبر ابن يسير وعن دعوة الآخرين إلى الصبر ، فالشريف يطب صبرا جميلا حتى يأتى على الصابر نومة تلحقه بالأولين الراحلين ، فيقول الشريف الرضى :

---

(١٩٠) الأصفهانى - الأغانى ١٤ / ٤١ .
(١٩١) الجاحظ : البيان والتبيين - ٣ / ١٧٩ / ١٨٠ .
(١٩٢) المصدر السابق - ٣ / ١٧٩ / ١٨٠ .
(١٩٣) المصدر السابق - ٣ / ١٧٩ .

فصبرا جميلا إنما هى نومة ... وتلحقنا بالأولين النوائب[١٩٤]

والصبر عند الشريف ، يعنى قدرة تحمل النفس على الأذى ، ولا يعنى تحمل الجسد على التعذيب فيقول :

لا تنكرى حسن صبرى ... إن أوجع الدهر ضربا
فالعبد أصبر جسما ... والحر أصبر قلبا
سأصبر إن الصبر مر صدوره ... ألا ربما لذة لقلبى عواقبه[١٩٥]

والشريف ليس من المجان ، فهو لم يفحش فى القول ، ولم يمجن فى غزله ، وليس أدل على موقفه من حديثه عن نفسه ، وعن إتزانه وتعقله ، مثلما يظهر فى قوله :

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكن أوقاتى إلى الحلم أقرب
وأعرض عن كأس النديم كأنها ... وميض غمام غائر المزن خلب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتى ... ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ... ولا أنطق العوراء والقلب مغضب[١٩٦]

وقد أثار الشريف الرضى فى بعض شعره إلى شبابه ، وإلى إقبال النساء عليه ، ثم أشار إلى مشيبه ، وإلى إدبار النساء عنه ، فى قوله :

سواد الرأس سلم للتصابى ... وبين البيض والبيض الحروب
وولاك الشباب على الغوانى ... فبادر قبل يعزلك المشيب[١٩٧]

ويكنى الشريف الرضى بسواد الرأس عن زمن الشباب ، وأن هذا السواد يتفق والتصابى ، ويريد بالبيض الأولى الشعر الأبيض ، والبيض الثانية - الحسان من النساء ، ويقول بين الشباب والصبا موافقة - لا ينفر أحدهما من الآخر ، وبين الشيب والحسان من النساء تنافر ، وذلك المعنى من المعانى المطروقة عند الشعراء .

ويصور الشريف الرضى نفسه فى شبابه ، حين كانت النساء تقبل عليه ، فيقول :

ولقد أكون من الغوانى مرة ... بأعز منزلة الحبيب الأقرب
اقتادهن بفاحم متخائل ... فيزينتى ويزين لى ويزين بى
وإذا دعوت أجبن غير شوامس ... زف النياق إلى رغى والمصعب

---

(١٩٤) ديوان الشريف الرضى - ت : محمد محيى الدين عبد الحميد . جـ ١ الأولى عيسى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٤٩ - ص ٣٣٥ .
(١٩٥) ديوان الشريف الرضى - ٤٦٢ .
(١٩٦) ديوان الشريف الرضى - ص ٢٣١ .
(١٩٧) ديوان الشريف الرضى ٤٣٧ .

فلئن فجعت بلمة فينانة مات الشباب بها ولما يعقب[١٩٨]

ويرى الشريف أنه حين كان فى ميعة شبابه ، كان ينزل من قلوب الحسان أحسن منزلة ، وينال منهن ما يرجوه ، ويقودهن إلى حيث يريد فهن طوع قيادته ، وكان إذا دعا الحسان لبيته يستجبن لندائه كما تستجيب النياق لدعاء السيد الكريم ، ويرى أن شيبه فجيعة تؤدى بالشباب وتهلكه . والشريف يتكلف طلب الهوى ، ويتصنعه ، بعد أن رحل الشباب عنه ، فيقول :

فاليوم أطلب الهوى متكلفا حصرا ، وألقى الغانيات مريبا
أما بكيت على الشباب فإنه قد كان عهدي بالشباب قريبا[١٩٩]

ويتحسر على شبابه ، فقد فات كل الذى يطلبه ويرجوه ، فيقول :

ذكرت بها عهد الشباب فحسرة أفدت وقد فات الذى كنت أطلب[٢٠٠]

وكان من الأجدر أن يكون الحديث عن شعر الشريف هذا فى الجزء الخاص بالحديث عن الشيب ، أو كان من الأجدر أيضا ألا نشير إلى الشريف باعتباره خارجا عن دائرة الشعراء المجان ، ولكن حديثه عن الصبر فى هذا المكان جعل البحث يشير إلى بعض شعره التى يشم منها رائحة المجون ، وهى ليست بأشعار ماجنة ، لأن صاحبها لم يكن ماجنا ، ولكنه بكى الشباب ، ونفر من الشيب أحيانا ، مصورا إقبال النساء عليه ، ومصورا فرحته بقيادته لهن ، وهذا لا يعيب الشاعر ، ولا يؤثر فى تقييمه الأخلاقى ، فهذا تصوير لأمور عادية طبيعية عند معظم الشباب من الشعراء وغير الشعراء .

وإذا كان للزهد درجات يفوق بعضها البعض ، كذلك للمجون درجات أيضا تتفاوت مراتبها ، وتختلف حدتها وشراستها ، أو خفتها وبساطتها ، وعلى هذا يمكن وضع الشريف فى أبسط درجات شعر الشباب غير المفحش وغير المقذع ، وربما - وهو الأقرب إلى التصديق - أن شعر الشريف الرضى فى النساء والشباب الغزلى ، كان تجريبا لمقدرته الفنية ، أو كان محاولة لأن يقول فى بعض الموضوعات الظاهرة التى قالها فيها معظم الشعراء ، فجاء حديثه رقيقا رشيقا ، عفيفا غير ماجن . فهو يسمع الغناء ، ولكنه يعرض عن كأس النديم ، وهو لا يعرف الفحشاء ، ولا ينطق العوراء ، ومن الطبيعى أن شعره فى التوبة والاستغفار يطغى على شعره فى تصوير الشباب وبعض ما كان يميل اليه .

ومن الواضح أن نظم الشعراء فى معنى الصبر لم يكن بالقدر الذى يتناسب وهذه القيمة ، ولم

---

(١٩٨) ديوان الشريف الرضى ٤٣٠ .
(١٩٩) ديوان الشريف الرضى ٤٣٠ .
(٢٠٠) ديوان الشريف الرضى ٢٣٤ .

يكن متمشيا مع كثرة المحن التى صادفوها فى حياتهم ، فهم لم يعطوا لهذه القيمة حقها من النظم والدعوة إليها فجاء حديثهم عن الصبر فى إشارات بسيطة ، وفى وقفات خاطفة ، وربما تحدث الشعراء أنفسهم قبل زهدهم عن الصبر على هجر المحبوبة أكثر من حديثهم عن الصبر على المحنة والدعوة إليه كقيمة أخلاقية ، بعد أن هجروا المجون ، وتابوا واستغفروا لذنوبهم .

ولم نر شاعرا يخص الصبر بمقطوعة خاصة ، أو يحلل تلك القيمة ، ويدعو إليها ملحا ، أو يبين منزلة الصبر والصابرين عند ربهم ، وما أعد لهم ، وهذا طبيعى فلم يكن الشعراء وعاظا أو دعاة دين ، بل كانوا صادقين مع أنفسهم ، فعبروا عما أحسوا به .

ومن المحتمل ألا يكون هناك وقت للصبر أمامهم ، وهم قد تمتعوا بشبابهم ، وأسرفوا على أنفسهم ، وأفرطوا فى لذاتهم ، وهم حين زهدوا فى مجونهم ، مجبرين أو طائعين ، انشغلوا بالتوبة والاستغفار أكثر من انشغالهم بالصبر وببعض القيم الأخلاقية الأخرى ، ولقد تعامل المجان بعد توبتهم مع الصبر على أنه شكوى أو اعتراض ، وعلى أنه انتظار لنتيجة ، وترقب لثمار مرجوة ، وكان الإكثار من الحديث عن الصبر يعنى رفضهم حالتهم التى أصبحوا فيها . وهم يعدون للنهاية عدتها ، ويحسبون لها حسابها ، فجاء الصبر فى شعر أبى العتاهية ممتزجا مع الموت ومع القبر ، بينما رأى ابن يسير غير ذلك فجعله مرتبطا بالأمل وبالعمل ، وكان الصبر فى شعر المجان بعد توبتهم كأنه دعوة إلى من يرزحون تحت نير المحن ولم يبصروا الطريق بعد ، أما هم فقد عرفوا حقيقة الأمر ، وأبصروا رشدهم وأعلنوا رضاءهم عما أصبحوا فيه ، لقد كان الصبر فى شبابهم أكثر ارتباطا بهم ، وأكثر إلحاحا فى الدعوة إليه ، عنه بعد أن زهدوا وصاروا قانعين ، راضين ، تائبين .

(ب) القناعة :

ترتبط الدعوة إلى القناعة والتخلى عن الطمع ارتباطا وثيقا بمفهوم الزهد عامة ، وبمفهومه عند الشعراء المجان التائبين . والزهد عند المجان لم يكن بالمفهوم الواسع الذى عرفه زهاد الاسلام ثم المتصوفون ، ولكنه كان عند الشعراء المجان بمعنى البعد عن المجون ، والبعد عن الطمع ، والتوبة عن الذنب ، والرضا بالقليل ، والقناعة بما قسم الله ، فكان الزهد عندهم فى أبسط صوره ، ويظهر حين يرغب أحدهم عن أمر ، فيزهد فيه ولا يرغبه ، بينما للزهد مفاهيم واسعة أخرى ومنها « التعبد والزهد القليل ، والزهد الإعراض عن الشىء احتقارا له » وقد سأل رجل العباس عن الزهد فقال : ترك ما يشغلك عن الله أخذه ، وأخذ ما يبعدك عن الله تركه »[٢٠١] .

---

(٢٠١) ابن عساكر - تاريخ دمشق - جـ ٧ ص ٢٢٥ .

وزهد المجان يعتمد على القناعة فيما كانوا يطمعون فيه فى شبابهم ، وقد أمد الاسلام وشرائعه معانيهم بمضامين عديدة للقناعة ، كما أن الملل الذى أصاب بعضهم من حياة المجون دفعهم إلى القناعة ، وإلى الإكتفاء بالقليل ، والرضا به ، ولم يعد التنافس بينهم على المال والحظوة ، بل أضحى التنافس فى التقرب إلى الله ، وإظهار ذلك فى أشعارهم ، وفى سلوكهم . كما كانت أقوال الرسول عليه السلام ، وأقوال الصحابة رضى الله عنهم - وأقوال الحكماء المأثورة ، والزهاد والوعاظ من أثرى المصادر وأخصبها التى أمدت هؤلاء الشعراء بمعانيهم وصورهم حول القناعة .

ويروى صاحب بهجة المجالس طائفة من هذه الأقوال ومنها ما رواه عن النبى عليه السلام : عن القناعة « ما قل وكفى ، خير مما أكثر وألهى » « والقناعة مال لا ينفذ ، وما عال من اقتصد » و« خير الرزق ما يكفى ، وأفضل الذكر الخفى » و« أن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، خذوا ما حل ، ودعوا ما حرم » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - أيضا - « اقنع بما رزقت تكن أغنى الناس » وقال على بن أبى طالب : « الزاهدون فى الدنيا ، قوم وعظوا فاتعظوا ، وأيقنوا فعملوا ، إن نالهم يسر شكروا ، وإن نالهم عسر صبروا ...»[٢٠٢] .

وفى الخبر المرفوع روى « عز المؤمن استغناؤه بربه عن الناس ، وقال سعيد بن المسيب : « من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ولزهاد العصر العباسى أقوال فى القناعة ، منها ما ينسب إلى ابراهيم بن أدهم (١٦١ هـ) « الزهد زهدان : زهد فرض ، وزهد فضل ، فالزهد فى الحرام فرض ، والزهد فى الحلال فضل ، والورع ورعان ، فالورع عن المعاصى فرض ، والورع عن الشبهات ضرر وفضل » وقد سئل المدائنى بن محمد عن الزهد فى الدنيا : فقال : « الزهد ألا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود »[٢٠٣] .

ومن المعانى التى صورها الشعراء عن قناعتهم وعن الدعوة إليها ، الحفاظ على كرامة الانسان ، وصيانة ماء الوجه ، والبقاء على حياته ورونقه ، وقد اشترك فى هذا المعنى كثير من الشعراء غير المجان وغير العباسيين ، فى الجاهلية وفى الاسلام ، حتى الصعاليك كانوا من أبرز طوائف الشعراء تعبيرا وتصويرا لهذه القيمة الأخلاقية فقد عرف كثير منهم بالقناعة ، وعدم الطمع ، وعدم النظر إلى ما فى أيدى الغير ، وهذا الصعلوك الجاهلى الشنفرى يفتخر بقناعته ، وبأنه يستف ترب الأرض كيلا يتطاول عليه متطاول ، يفاخر بالعطاء وبالكرم ، ويطيل الشنفرى مطال الجوع حتى يميته ، فى قوله :

---

(٢٠٢) بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، وشحذ الذاهن والهاجس ٣٠ .

(٢٠٣) المصدر السابق ص ٣٠٣ .

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له على من الطول امرؤ متطول[٢٠٤]

وفى العصر العباسى يشير بشار بن برد إلى قناعته ، فنراه يعرض عن مطاعم القادرين ، وهو فى حالة من الإعياء والجوع الشديد ، حفاظا على كرامته ، فيقول :

وأعرض عن مطاعم قد أراها فاتركها وفى بطنى انطواء
فلا وأبيك ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء[٢٠٥]

ويكثر أبو العتاهية من نظمه فى القناعة ، فيفتخر بها ويدعو إليها ، وجاءت كثرته من كثرة زهدياته ، ومن كثرة أشعاره ، فمن المعروف أنه أحد الثلاثة المشهورين بكثرة شعرهم كما يقول الأصفهانى وهم بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية .

ومن قول أبى العتاهية فى القناعة :

أيها الطالب الكثير ليغنى كل من يطلب الكثير فقير
وأقل القليل يغنى ويكفى ليس يغنى ، وليس يكفى الكثير
أنا أغنى العباد ما كان لى يكن وما كان لى معاش يسير[٢٠٦]

ويقول أبو العتاهية فى القناعة - أيضا - :

ليس على المرء فى قناعته إن هى صحت ، أذى ولا نصب
من لم يكن بالكفاف مقتنعا لم تكفه الأرض كلها ذهب
يا جامع المال منذ كان ، غدا يأتى على ما جمعته الحرب[٢٠٧]

ويذم البخل ، ويرى أن الغنى هو غنى التقوى ، لا غنى الفضة والذهب فيقول محببا القناعة ، مشيدا بها ، داعيا اليها :

وفى جميل القنوع ينخفض الـ عيش وبالحرص يعظم التعب
إن الغنى فى النفوس العـ ـز تقوى الله لا فضة ولا ذهب[٢٠٨]

وتسيطر روح التشاؤم على دعوة أبى العتاهية إلى القناعة ، فيذكر الموت ، ويؤكد حقيقة ترك الانسان مايجمعه ، ويتنافس عليه لغيره ، وأن الانسان لا يأخذ غير أكفانه : فيقول :

عجبا من معشر سلفوا أى غبن بين غبنوا
وفروا الدنيا لغيرهم وأبتنوا فيها وما سكنوا

---

(٢٠٤) شرح لامية العرب - أبو البقاء العكبرى - دار الأفاق ١٩٨٣ .
(٢٠٥) ديوان بشار بن برد جـ ٤ ص ١٢ .
(٢٠٦) ديوان أبى العتاهية ١٦٤ .
(٢٠٧) ديوان أبى العتاهية ٣٧ .
(٢٠٨) ديوان أبى العتاهية ٥٧ .

تـركوهـا بعـد مـا اشتبكت بـينهـم فى حبـهـا الاحن
كـل حى عنـد ميتتـه حظه من مالـه الكفن[٢٠٩]

وترتبط الدعوة إلى القناعة فى زهديات أبى العتاهية بذم البخل ، ويربط ذلك أيضا بصورة الموت وصورة المشيعين ، ويرى ضرورة قناعة الانسان بقوت يومه ، ويذم الحرص على المال ، فإن الحرص يذل أعناق الرجال ، وأن مصير ذلك كله إلى زوال ، ويضرب لذلك مثلا بسلم بن عمرو ، فيقول :

كـان ممرضى قـد قام يمشى بنعشى بـين أربعـة عجـال
وخلفى نسـوة يبكـين شجـوا كـأن قلوبهن عـلى عـقـال
سـأقنع مـا بقيت بقوت يـوم ولا أبـغى مـكـاثـرة بمـال
تعـالى الله ياسلم بن عمـرو أذل الحـرص أعناق الـرجـال
هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى الزوال[٢١٠]

وحين يبلغ سلما أبيات أبى العتاهية ، يقول سلم « ويلى على الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها ، وعبأ البدر فى بيته ثم زهد مرآة ونفاقا ، فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب »[٢١١] .

ويبدو أبو العتاهية أكثر صراحة ، فى تعبيره عن نفسه ، وفى تصوير عجزه عن تخليه عن الطمع والحرص ، فهو يدعو إلى الكفاف وإلى الصبر والقناعة ، فإن الثروة التى يجمعها الأغنياء لا تدخل معهم قبورهم ، فيقول :

حتى متى يستفـزنى الـطمـع أليس لى بـالكفـاف متسـع
مـا أفضل الصـبر والقنـاعـة للناس جميعا لـو أنهم قنعوا
أثـروا فلم يـدخلوا قبـورهم شيئا من الثروة التى جمعوا[٢١٢]

ويطلب أبو العتاهية الغنى فى بعض أوقات حياته ، ولا يرى غير طريق التعفف هو الموصل إلى الغنى ، فالغنى غنى النفس ، والغنى فى العفاف والقناعة ، فيجمع أبو العتاهية هذه المعانى فى قوله محبذا القناعة ، وداعيا إليها :

طلبت الغنى فى كل وجه فلم أحد سبيل الغنى إلا سبيل التعفف
خليلى ما أكفى اليسير من الذى نحاول أن كنا بما عف نكتفى
وما أكرم العبد الحريص على الندى وأشرف نفسى الصابر المتعفف[٢١٣]

---

(٢٠٩) ديوان أبى العتاهية ١٩٧ .
(٢١٠) ديوان أبى العتاهية ٢٣٠ .
(٢١١) ياقوت - معجم الأدباء ٤ / ٢٤٨ .
(٢١٢) ديوان أبى العتاهية ٢٣٧ .
(٢١٣) ديوان أبى العتاهية ١٧٠ .

ويرى أبو العتاهية أن حياة البخيل الحريص كلها تعب وتعاسة ، وهذا البخل مرض يشترك فيه العجم والعرب ، فيقول :

ما أستبعد الحرص من له أدب ... للمرء فى الحرص همة عجب
ما طاب عيش الحريص قط ، ولا ... فارقه التعس منه والنصب
البغى والحرص والهوى فتن ... لم ينج منها عجم ولا عرب[٢١٤]

وربما شعر أبو العتاهية بشعور البخيل ، أحس بالتعاسة والهم حين تجمعت له الأموال ، ولعله ينتقد نفسه أيضا ، ويصور عجزها على عدم قدرتها عن التخلى عن البخل ، ولم يمنعه هذا كله من الدعوة إلى الزهد والى القناعة .

ويبدو أبو العتاهية أشبه بالوعاظ فى نظمه للقناعة ، وهى من المعانى البارزة فى زهديات أبى العتاهية ، ولعل الزهد فى مفهوم أبى العتاهية هو القناعة ، حتى يعد صوت القناعة من الأصوات المسموعة عالية فى زهديات أبى العتاهية مع صوت الموت والقبر الحزين المتشائم ، بل ربط أبو العتاهية بين الصوتين كثيرا ، وما دام الموت نهاية كل حى ، والمرء لا يأخذ معه شيئا مما جمعه ، فما الداعى إلى جمع الأموال واكتنازها والطمع والحرص على جمعها والحفاظ عليها ! . بل يجب على العاقل أن يقنع بقوت يومه ، ويكتفى بالقليل ، ويرضى به ليسعد ، ويتجنب شقاء الحرص وتعاسة البخل .

وهذه الدعوة العتاهية ، لا تتفق وروح الإسلام الحنيف ، الذى لم يحرم العمل والكفاح وبلوغ الهدف ، والكسب الحلال ، وبتفضيل البعض على الآخر فى الرزق ، فقد غالى أبو العتاهية فى دعوته إلى القناعة ، وتخطى فى دعوته الحدود المعقولة ، والأطر المقبولة .

إن القناعة فى زهديات أبى العتاهية تدفع إلى الكسل وإلى التراخى ، وتحث على القعود والخمول ، وتدعو إلى عدم العمل وإلى التخلى عن الأمل ، وإلى تجنب السعى والجهد والكفاح ، إن دعوته تدعو إلى الاكتفاء بالقليل ، وإلى عدم التفكير فى قوت الغد ، وإلى عدم العمل من أجل بناء مستقبل أفضل للانسان ولمن يعولهم ، فيبدو فى قناعته أو فى دعوته إليها محتقرا للدنيا ولما فيها ، ولكنه لا يعظم الآخرة بقدر احتقاره للدنيا ، فقد أسرف فى دعوته إلى القناعة ، ولم يوضح جزاء القانعين عند ربهم ، حتى شوه أبو العتاهية صورة القناعة بهذه الدعوة المفرطة الخاملة ، التى تقتل روح الأمل والطموح والعمل الشريف للكسب الحلال المشروع .

ويرى المقدسى فى دعوة أبى العتاهية إلى القناعة « تمثيلا لروح الشرق القديمة التى تحتقر

---

(٢١٤) ديوان أبى العتاهية ٣٦ .

الدنيا وتنظر إليها ، كممر زائل لحياة عليا ، وهى نظرة تعكسها لنا كتب الدين ، وأقوال الأنبياء والأتقياء وقادة الحياة الدنيا فى كل جيل »[٢١٥] .

إن القناعة التى تدعو إليها الشريعة الاسلامية تكمن فى تجنب الشهوات الفاسدة ، وفى تجنب الطمع وعدم التنافس والتقاتل من أجل الحصول على ما فى أيدى الغير ، وتدعو إلى عدم الحزن على ما فات الإنسان من أمور تمناها وطالبها طويلا ، إن القناعة الحقيقية تكمن فى التعالى بالنفوس والارتقاء بها ، وفى الحياء والبعد عن الآثرة ، حتى تكون القناعة منهجا أخلاقيا ، ومسلكا اجتماعيا يخلو من النزعات الشهوانية ومن الأطماع الانسانية التى تفسد كل جميل وتذهب بحياء الإنسان وكرامته . وهى - أيضا - الرضا بما قسم الله ، وهى العمل ، والجهد الشريف فى ظل الدين والشريعة والخلق والعرف الاجتماعى المقبول .

وإذا كانت القناعة كما يصفها أبو العتاهية فى زهده وهى « الوقوف على الجهاد والبعد عن أسباب التقدم ، وطلب الراحة فى زوايا المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوف ، فهى الخمول الذى يزيد أكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة »[٢١٦] .

ويرى المقدسى - أيضا - فى قناعة أبى العتاهية وفى رسالته أن بها ضعف وعجز « لأنه قام ينشد لنا أناشيد الدين دون أن يتفنن فى تطبيقها على الحياة العملية ، وكان فى شعره بقلد الزهاد ورجال الدين تقليدا»[٢١٧] .

إن اهتمام أبى العتاهية بفنه الشعرى ، ورغبته فى الانقطاع إلى زهدياته ، ليؤكد مكانته فى هذا اللون من النظم ، دفعه ذلك كله إلى الاكثار فى القول ، وإلى التمادى فى الدعوة والاستغراق فيها ، فخلط بين العمل والخمول ، وخلط بين الطمع والجهد ، وتجاهل فعالية الانسان مع مجتمعه ومع حياته ، فجاءت دعوته إلى القناعة متعارضة مع الروح العملية للدين ، ومع الجانب التطبيقى للحياة .

لقد جمع أبو العتاهية كثيرا من أقوال الزهاد فى عصره ، متأثرا بتفسيرهم للقناعة ، فى هجر الحياة ، وتجنب آمالها ، ومن هذه الأقوال ما سجله الحصرى القيروانى فى زهر الآداب ، ومنها : « إعرض عن زبرج الدنيا وخدعها ، وأقبل على اكتساب نعم الآخرة ومتعها ، كف كفه عن زخرف الدنيا ونضرتها ، وغض طرفه عن متاعها وزهوتها ، وأعرض عنها ، وقد تعرضت لها بزينتها وصد عنها ، وقد تصدت له فى حليتها »[٢١٨] .

---

(٢١٥) أنيس المقدسى - أمراء الشعر العربى ١٦٠ .
(٢١٦) المرجع السابق ١٦٠ .
(٢١٧) المرجع السابق ١٦١ .
(٢١٨) الحصرى - زهر الآداب - ١ / ١٩٠ .

ومن الشعراء الذين دعوا إلى القناعة ، وأكثروا من تصويرها ، « الشريف المرتضى » فقد كان ميالا إلى الزهد راغبا عن الدنيا ، غير مقبل عليها ، فرأى الدنيا معبرا للآخرة ، فنبذ الحرص ، وهجا الطمع ، عن عقيدة وعن اقتناع ، مطبقا ذلك تطبيقا عمليا ، فى سلوكه الخاص فى حياته ، مما جعل دعوته تختلف مع دعوة أبى العتاهية وغيره من شعراء المجون إلى القناعة . إذا كانوا دعوا إليها . فيقول الشريف المرتضى :

قل للذى راح بعز واغتدا ... يسحب منه مطرفا موردا
صنيع من يطمع أن يخلدا ... جمع مالا بد أن يبددا
إن لم يزل فى يوم زال غدا ... يا جامعا لغيره محتشدا
نضدت مالا هل نضدت أمدا ... سيان من سار يجر العددا
ومن يظل واحدا منفردا ... كلاهما مفارق ما وجدا[٢١٩]

إن قناعة الشريف المرتضى – وهو من غير الشعراء المجان – مصدرها يختلف عن مصادر قناعة أبى العتاهية ، فقد ربى الشريف المرتضى فى أسرة عرفت بالتقوى والتدين ، وكان شيوخه الذين علموه يربونه على الخلق والصلاح ، فضلا عن أخلاقياته واستعداده الفطرى لأن يتمثل هذا الاتجاه ، وقد أكثر فى شعره وفى نثره من الحث على هذه القيم الأخلاقية ، والمرتضى يدعو إلى التخلص من التعلق بالدنيا ، وإلى التخفف من حبها ، ذاك الحب الذى يملك على الانسان فكره ، ويشغل قلبه عن ذكر الله ، ولم تكن القناعة عنده مثلما كانت عند أبى العتاهية دعوة إلى التواكل والكسل والخمول .

---

(٢١٩) ديوان الشريف المرتضى ١ / ٩٩ .

٦ - الاستغفار، وطلب العفو، وتسبيح الله وحمده

اشترك الشعراء المجان بعد توبتهم فى بعض المضامين التى كرروها فى نظمهم ، ومن بين هذه المضامين المشتركة ، الإكثار من استغفارهم لذنوبهم ، والإلحاح فى طلب عفو الله - سبحانه وتعالى - ، وتصوير طمعهم فى رحمته وفى ثوابه وفى جنته ، كما أكثروا من التسبيح بحمده ، وتقدير فضله ، والاعتراف بنعمه .

وشعر الاستغفار عند المجان العباسيين - بعد توبتهم - ظهر فى نهاية المطاف ، ووضح فى آخر ما نظموه من أشعار - غالبا - ، فقد أعلن المجان توبتهم ، وفى التوبة إشارة إلى المجون وإلى الرغبة فى التوبة ، والعودة عنها ، والرجوع إليها . كما أنهم بكوا شبابهم ورحبوا بشيبهم أو نفروا منه ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى تقبله لما فيه من وقار وتعقل واتزان ، كما صوروا الموت والقبر ، واتخذ بعضهم ذلك فرصة للترغيب فى العمل الصالح ، واتخذه الآخرون وسيلة إلى الترهيب والتخويف . ورسم بعضهم الدهر معاندا ، متقلبا ، غادرا ، لا يدوم على حالة واحدة ، ولا يأمن الإنسان له ، واستغلوا ذلك فى دعوتهم إلى الصبر وإلى القناعة ، حتى أضحى شعر المجان بعد زهدهم ، يجمع غالبا بين طرفين هما الماضى والواقع ، يشيرون إشارة بسيطة إلى ماضيهم وإلى مجونهم ، إحساسا بالذنب ، وشعروا بالندم ، ويشيرون إشارة واضحة إلى توبتهم وإلى زهدهم وإلى استغفارهم .

والشعراء المجان فى استغفارهم ، يعترفون بالذنوب التى ارتكبوها فى ماضيهم الماجن ، وهم يعترفون بها دون أن يسردوها ودون أن يفسرها أو يفصلوا جوانب ذنبوهم تفصيلا ، وهم لا ينكرون ما وقع منهم ، ولم يدعوا براءة ، ولم يكذبوا ، أو يخادعوا أنفسهم ، فكثيرا ما خادعوها ، وحان لهم أن يكونوا أكثر وضوحا وصراحة مع أنفسهم ليتطهروا من تلك الآثام التى علقت بهم . ولم يصرحوا بأنهم قد اتهموا بالمجون ، فلم يجبرهم أحد على هذا القول ، ولم يضطروا إلى التكلف فى التعبير ، لذلك كله جاء اعترافهم بالذنوب اعترافا صريحا ، ولكنه اعتراف مجمل ، لا تفصيل فيه ، وكان دافعهم المباشر إلى ذلك هو الخوف من عذاب الله ، وإلى الطمع فى رحمته وفى جنته ، فأكثروا من الاستغفار ، دون أن يرددوا ما عرف عن المؤمنين فى استغفارهم ، فالشعراء لم يكونوا وعاظا أو ناصحين ومعلمين ، بل كانوا يعبرون صراحة عما يحسون . فخلا شعرهم فى الاستغفار من الأقوال المأثورة ، وخلا - أيضا - من الأدعية المعروفة ، ومن عبارات رددها الزهاد المنقطعون للعبادة .

وجاءت مرحلة الاستغفار بعد مرحلة التوبة ، ولم يشرك الشعراء مع استغفارهم موضوعات أخرى ، لا تتفق مع طبيعة شعر الاستغفار ، اللهم إلا فى مرحلة مجونهم الأولى ، حين كانوا يعدون الحب ذنبا ، والتعلق بالمحبوبة ذنبا ، فيستغفرون لذنبهم ، فكان مفهومهم للاستغفار فى مجونهم مختلفا عن المفهوم الحقيقى للاستغفار بعد توبتهم .

لقد كان استغفارهم فى مجونهم من قبيل الاستخفاف ، مثل استخفافهم بأمور كثيرة ، واستهتارهم بقيم عظيمة وعديدة ، فكانوا لايزالون فى غيهم سادرين ، لم يتوبوا ولم يزهدوا .

إن شعر الاستغفار من الموضوعات التى نظم فيها شعراء كثيرون ، من المجان ومن غير المجان ، ومن التائبين من المجان ، ومن الزهاد الذين لم يمجنوا ، وإن شعر الاستغفار فى زهد المجان يختلف فى مضمونه وفى صياغته ، وفى تراكيبه وفى دوافعه وفى أهدافه عن شعر الاستغفار عند غيرهم من طوائف الشعراء .

فقد جمع المجان فى استغفارهم بين الإشارة إلى مجون الماضى وبين الرغبة فى غفران الله لهذه الذنوب ، وقد أكثر بعضهم من استغفاره فى نظمه خاصة حين أحس بخطورة آثامه ، وشعر بجسامة ذنوبه ، وخشى غضب ربه ، وخاف عقابه . فأكثر من استغفاره وطلب عفوه .

ومن غير اليسير أن نرصد سمات شعر الاستغفار الفنية دون أن نعرض لبعض نماذج لهذا اللون من النظم فى اشعار المجان التائبين .

ومن الشعراء المستغفرين لربهم ، الطالبين عفوه ورحمته ، الشاعر بشار بن برد ، والشاعر أبو العتاهية ، وأبو نواس ، وابن المعتز ، وغيرهم من الشعراء العباسيين الذين خضعوا لهذا البحث والدرس والتحليل ، ممن عرفوا بالمجون ، ثم أبدوا تنسكا ، وأظهروا توبة ، وأعلنوا زهدهم .

وتتشكل صورة الاستغفار فى أشعار هؤلاء المجان من الشكوى إلى الله ، والتضرع له – سبحانه وتعالى – ، وتسبيحه أيضا ، فلقد ضاقت الحياة حول بشار بن برد ، وانسدت مسالكها ، فلم ير غير ربه يشكو له جهد كربه ، فقد انصرف الناس من حوله ، فيقول بشار :

كيف يمشى وما تعود كما كنا ... إلى الله اشتكى جهد كربى
فرغ الناس من معالجة النا ... س جميعا وأنت همى وربى[٢٢٠]

ويطمع بشار فى رحمة ربه ، ويستغنى بها عن غنى الأغنياء فيقول :

قالوا ذوات الغنى خير ، فقلت له ... برحمة الله استغنى وأوطارى[٢٢١]

---

(٢٢٠) ديوان بشار ١ / ٢٩٦ .

(٢٢١) ديوان بشار ٣ / ١٤٨ .

والشاعر بشار بن برد يعرف الخطأ ، ويضع يده على أوجه التقصير فى سلوكه ، فيعظ غيره ، ويصرح بالذنوب ، وكأنه يفسر موقف المنافقين ، الذين يظهرون للاسلام حبا ، وللرسول تعظيما ، وهم بالله ورسوله غير مؤمنين ، إنهم يقترفون آثامهم فى ليالى رمضان المباركة ، فلا يقيمون الصلاة ، بل يفشون السر ، وهم لذلك أشقياء ولهم عند ربهم عذاب عظيم ، فيقول بشار :

وتظهر حب نبى الهدى ... وأنت به كافر تشهد
وتشرك ليلة شهر الصيام ... حلالا كما تظهر الأربد
وإن قيل صل فقد أذنوا ... زمعت كما يزمع المقعد
وإن كتم السر أفشيته ... نميما كما بلغ الهدهد
فأنت المشقى وأنت الذى ... بما قد سردت وما أسرد[٢٢٢]

ويبدى بشار توبته ، ويعلن استغفاره إلى الله من ذنوبه ، التى ارتكبها على جهل منه ، دون أن يدرى ، على حد قوله :

أتوب اليك من السيآ ... ت واستغفر الله من فعلتى
تناولت ما لم أرد نيله ... على جهل أمرى وفى سكرتى
ووالله والله ما حسبته ... لعمد وما كان فى همتى
وإلا فمت إذن ضائعا ... وعذبنى الله فى منيتى[٢٢٣]

وربما حاول بشار فى توبته واستغفاره ، أن يدفع عن نفسه تهمة الخروج على الدين ، وعدم التقيد بحدوده ، واستغفار بشار قليل بل نادر ، لا يحتل شيئا فى ديوانه ، ولا يعد بشار من المجان التائبين ، ولكن له بعض الومضات التى يصرح فيها بالتوبة ويذكر فيها استغفاره ، ولعلها صحوات نفس طارئة ، ولكنها على الأصح شعار يخفى خلفه شعوره الحقيقى ، وورع يحميه من ضربات الخليفة ، ويستره عن أعين الرقباء . ومن المحتمل أيضا أن يكون شعوره صادقا بعض الشىء ، فى فترة نظمه ، حين يعرض لذنوبه ، ويعرض لذنوب الآخرين ، ولكنه كان عاجزا عن الإقلاع عن مجونه ، وعاجزا عن التوبة الحقيقية ، كما لم يستطع أن يستمر فى طاعته لأمر الحاكم ، ولأمر الدين ولأمر السن ولنداء العقل ، حتى قتل بتهمة الإلحاد والزندقة .

وقد تحايل بشار على مجونه ، وعلى التمادى فيه ، فكان سلاحه أحيانا شعره الذى يتكلف فيه زهد الزهاد ، ووعظ الواعظين ، ونراه يعترف بذنوبه على لسان الآخرين ، أو يرى صورته

---

(٢٢٢) ديوان بشار ٣ / ١١٨ .
(٢٢٣) ديوان بشار ٤ / ٣٦ .

فى صورة غيره ، فينتقدهم ويذمهم ، وشعر الاستغفار عند بشار جاء فى أبيات متناثرة وسط مدائحه ، ليتقرب من ممدوحيه ، وينال من جزيل عطايهم . وغالبا ما عاد بشار بعد أقواله هذه إلى أحاديثه المستهترة غير الملتزمة بالخلق والعرف والدين .

والشاعر أبو العتاهية يستغفر ربه كثيرا ويسبحه تسبيحا طويلا ، ويصرح بإسرافه فى ذنوبه ، وبأنه كان خطاء ، ويبكى ويندم ، ويخشى عذاب الله ، حتى قيل أن آخر ما نظمه أبو العتاهية هو قوله ، يستغفر الله عن ذنوبه ، فى شعره الذى جاء فيه :

إلهى لا تعـذبنى ، فـإنى مقر بالذى قد كـان منى
ومـا لى حيلة إلا رجائى وعفوك ، إن عفوت ، وحسن ظنى
فكم من زلة لى فى البرايا وأنت على ذو فضل ، ومن
إذا فكرت فى ندمى عليها عضضت أناملى ، وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا ، وإنى لشر الناس ، إن لم تعف عنى[٢٢٤]

ويشير صاحب ديوان أبى العتاهية إلى الأبيات السابقة فى قوله : « قال أبو العتاهية ، يستغفر الله عن ذنوبه ، وهو آخر شعر ، قاله أبو العتاهية فى مرضه الذى مات فيه »[٢٢٥] .

ويؤيد هذا القول قول الاصفهانى - أيضا - فى أغانيه ، مما يجعل شعر الاستغفار آخر ما ينظمه الشعراء التائبين غالبا - وفيه يقر الشاعر بذنبه ، ويندم عليه ، ويخشى عذاب ربه ، ويطمع فى عفوه ، ويأمل فى رحمته ، وكأن اعتراف المذنب بذنبه سبيل إلى براءته وتوبته ، فكان الاعتراف بالذنب ، وطلب العفو والبكاء والندم ، والخجل ، والطمع فى رضا الله ، من أبرز موضوعات شعر الاستغفار عند المجان العباسيين بعد توبتهم .

ومن أقوال أبى العتاهية فى استغفاره ، الذى يجمع أبرز عناصر شعر الاستغفار قوله :

بـكت عـينى عـلى ذنـبى ومـا لاقيت مـن كـربى
فيـا ذلى ، ويـا خجـلى إذا مـا قـال لى ربى
أمـا استحييت تعـصينى ولا تخشى مـن العيـب
وتخفى الـذنب عن حلقى وتـأبى فى الهـوى قـربى
فتب مـما جـنيت عسـى تعـود إلى رضى الرب[٢٢٦]

ويصور أبو العتاهية إبليس وقد غره وزين له المعصية ، فاندفع إليها ثم صحا وخشى حساب ربه ، ولا يعرف بم يجيب حين يسأل عن ذنوبه ، فيقول :

ابليس قـد غـرنى ونفسى ومـسنى مـنهـما اللغـوب

---

(٢٢٤) ديوان أبى العتاهية ٤٢٥ .
(٢٢٥) ديوان أبى العتاهية ٤٢٥ .
(٢٢٦) ديوان أبى العتاهية ٣٩ .

ولست أدرى ، إذا أتانى رسول ربى بما أجيب[٢٢٧]

ويعترف بأنه خطأ ، فيستغفر الله عن ذنوبه ، ومن إسرافه على نفسه ، فى قوله :

استغفر الله من ذنبى ومن سرفى إنى وإن كانت مستورا ، لخطاء[٢٢٨]

ويسبح أبو العتاهية بحمد ربه ، الذى يعطى بغير حساب ، وهو ملك الملوك ، ومدبر الأمر ، منزل الغيث ، رازق الانسان من حيث لا يحتسب ، سبحانه وتعالى ، فيقول أبو العتاهية :

سبحان من يعطى بغير حساب ملك الملوك ، ووارث الأسباب
ومدبر الدنيا وجاعل ليلها سكنا ، ومنزل غيث كل سحاب[٢٢٩]

وفى المعنى ذاته يقول أبو العتاهية – أيضا – :

أما من الموت لحى لحا؟ كل امرىء آت عليه الفنا
تبارك الله وسبحانه لكل شىء حدة وانقضا
يقدر الانسان فى نفسه امرا ، ويأباه عليه القضا
ويرزق الانسان من حيث لا يرجو ، وأحيانا يصل الرجا[٢٣٠]

ولم يفت الشاعر فى استغفاره أن يضرب على وتر الموت أنغامه القريبة إلى نفسه ، التى لم تفارق أذنه ، ولكنه فى هذا المجال يتخفف من التشاؤم ومن ذكر معانى الخراب والهلاك التى سيطرت عليه ، فقد انشغل الشاعر بنفسه فى شعر الاستغفار ، وتفرغ لذاته ، ونظر إلى داخله اكثر من نظرته إلى ما حوله ، ومن حوله ، ولم يكثر فى شعر الاستغفار من الوعظ والنصح ولوم الآخرين ، فالملام هو ، والمعاتب هو ،والمخطىء نفسه لاغيرها . وهو الخائف على مصيره ، ولذلك جاء شعر الاستغفار فى زهديات أبى العتاهية أقرب إلى نفسه تعبيرا وتصويرا ، من فنون زهدياته الأخرى ..

لقد كان الشاعر أبو العتاهية فى استغفاره أكثر صراحة ، وأوضح أملا ، وأظهر تفاؤلا ، وكأنه أخاف غيره ، وأحيا الأمل فى نفسه ، فقد تعمد أن يفزع الآخرين ، وأن يرهبهم فى صور الموت والقبر ، ولكنه فى شعر الاستغفار ، يطمع فى الثواب ، ويأمل فى الجزاء ، فأصدر نغمة شجية ، تطرب بحزنها الصادق سمع من يستمع لها ، تشد بعاطفتها المتميزة شعور الآخرين الآملين فى رحمة ربهم ، وهو فى استغفاره لم ييأس أو يقنط من رحمة ربه ، ولم يصور السعير ، ولم يتخيل جهنم ، وعذابها ، ولكنه ندم وبكى ، وخجل واستحيا ، فصور ضعفه وذله أمام خالقه

(٢٢٧) ديوان أبى العتاهية ٣٨ .
(٢٢٨) ديوان أبى العتاهية ١١ .
(٢٢٩) ديوان أبى العتاهية ٥٤ .
(٢٣٠) ديوان أبى العتاهية ٢١ .

واعترف بذنبه ، وأكثر من تسبيح ربه ومن حمده ، وأكثر من ذكر صفات الله وقدرته وعظمته ، وأتى ذلك كله فى عبارات بسيطة ، وفى ألفاظ خفيفة كعادته ، لتنم عن عاطفة صادقة ، وعن إحساس غير متكلف ، فبدا معترفا بذنبه نادما باكيا ، طامعا فى رحمة ربه ، مستغفرا له ومسبحا بحمده .

ويعد الاستغفارا من أبرز مضامين زهديات أبى نواس ، وشعر الاستغفار عند أبى نواس يحمل خصائص فنية يشترك فيها مع غيره من الشعراء المستغفرين ، ويحمل خصائص خاصة بأبى نواس ، نابعة من شخصيته المتميزة ، ونابعة من ظروفه الخاصة التى دفعته إلى الزهد ، وإلى التوبة وإلى الاقلاع عن المجون ، ومن أظهر سمات شعر الاستغفار الخاصة بأبى نواس صدقه فى إحساسه بذنوبه ، وتجسيمه لخطورة آثامه ، فلطالما جاهر بالعصيان ، وتفاخر بمجونه ، وفجر فى قوله ، واستهتر فى فعله ، أليس هو القائل :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار الموت[٢٣١]

ويقول عن إبراهيم النظام

قولا لإبراهيم قولا هترا غلبتنى زندقة وكفرا[٢٣٢]

ويستهتر فى قوله حين كان ماجنا ، حيث يقول :

فدعى الملامة فقد أطعت غوايتى وصرفت معرفتى إلى الانكار
ورأيت إتيانى اللذاذة والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
احرى وأحزم من تنتظر آجل علمى بـه خبر من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار[٢٣٣]

ومن لم يسمع شعره فى مجونه « فربما سمع بنوادره ، وشهد مساخره ، فقد دخل المسجد مرة وهو على أقبح السكر ، وسمع الامام يقرأ : « قل يا أيها الكافرون » فصاح به من ورائه : لبيك ، وشرب فى يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء فوقع فيه المطر وقال لمن حوله : « أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك ، فكم ترانى أشرب الساعة من الملائكة ، ثم شرب ما فى القدح »[٢٣٤] .

ويتبرأ أبو نواس من الشرك بالله ، وينكره ، وفى ذلك يقول :

ترى عندنا ما يسخط الله كله من العمل المردى الفتى ما خلا الشركا[٢٣٥]

---

(٢٣١) ديوان أبى نواس ٣٧٠ .
(٢٣٢) ديوان أبى نواس ٣٩٠ .
(٢٣٣) ديوان أبى نواس ٤١٠ .
(٢٣٤) العقاد – الحسن بن هانىء ١٨٢ .
(٢٣٥) ديوان أبى نواس ٤٦٠ .

وفى المعنى ذاته ، يقول - أيضا - .

ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر[٢٣٦]

وشعر الاستغفار عند أبى نواس مر بمراحل فكرية متطورة . فقد أفرط الشاعر فى مجونه ، وأعترف بذلك ولم ينكره ، وهذا الإفراط قد دفعه إلى الإكثار من استغفاره فى زهدياته .

والاستغفار فى شعر أبو نواس فى بداياته ، جاء ممزوجا مع تصريحه بالمجون ، ولم يكن استغفار أبى نواس استهتارا بالاستغفار ، كما فعل غيره من الشعراء ، الذين كانوا يطلبون العفو والمغفرة من محبوباتهم ، ويستغفرون من حبهم لهن إذا كان ذلك ذنبا ارتكبوه ، أما أبو نواس فيصرح بمجونه ، ويطمع فى مغفرة ربه ، وهو لايزال فى عصيانه ، فقد فهم العفو والاستغفار كما فهمه بعض الشيعة المتطرفين ، وأشار الى ذلك شعراؤهم ، فتمادوا فى مجونهم إيمانا بمبدأ الشفاعة مثلما فعل السيد الحميرى .

ولنسمع أبا نواس وهو يدعو إلى المجون ، ويقرن مع دعته هذه عفو الله ، ومغفرته فى قوله :

وثقت بعفو الله عن كل مسلم فلست عن الصهباء ما عشت مقصرا[٢٣٧]

وفى قوله - أيضا - :

غاد المدام وإن كانت محرمة فللكبائر عند الله غفران[٢٣٨]

كما يقول أبو نواس :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفورا
تعض ندامة كفيك ، مما تركت مخافة النار السرورا[٢٣٩]

وفى المعنى ذاته يقول أبو نواس -أيضا - :

خوفتمانى الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندى[٢٤٠]

ولم يشعر باليأس من عفو ربه ، فيكثر من استغفاره طمعا فى رحمته فيقول :

لم وعفو الله مبذ ول غدا عند الصراط
خلق الغفران إلا لا مرىء فى الناس خاط[٢٤١]

---

(٢٣٦) ديوان أبى نواس ٤٢٠ .
(٢٣٧) ديوان أبى نواس ص ١١٣ .
(٢٣٨) ديوان أبى نواس ص ٢٦ .
(٢٣٩) ديوان أبى نواس ص ١١٧ .
(٢٤٠) ديوان أبى نواس ص ١٧٦ .
(٢٤١) ديوان أبى نواس ص ٢٩٣ .

ويحسده أبو العتاهية على بعض قوله فى الاستغفار ، فى قوله أورده ابن عساكر حين قال : « قال أبو العتاهية : قد قلت عشرين ألف بيت فى الزهد ، وودت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها فيها أبو نواس :

يـا نـواسـى تـوقـر أو تـعـز أو تـصـبـر
إن يـكـن سـاءك دهـر فـلـها سـرك أكـثر
يـا كـبـير الـذنب عفـ ـوُ الله عن ذنبك أكبر[٢٤٢]

وعن الأبيات السابقة - أيضا - يقول أبو مسلم أنها كانت مكتوبة على قبر أبى نواس فزادنى أبى فيها الأبيات الآتية وهى :

أعـظم الأشـيـاء فى أصغـر عفـو الله تصغـر
لـيس لـلإنـسـان إلا مـا قـضى الله وقـدر
لـيس لـلمـخـلوق تـد بـير بـل الله المـدبـر[٢٤٣]

وتأتى المرحلة الثانية بعد تلك المرحلة التى مزج فيها الشاعر بين المجون والاستغفار ، وهى مرحلة محاولة التوبة والبعد عن المجون ، فيقول مستغفرا :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجميل ظنى ، ثم إنى مسلم[٢٤٤]

ويعترف أبو نواس بأنه قد أحل ما حرم الله ، وليس له إلا أن يستغفر ربه ، ويطلب عفوه :

كم ليلة قـد بت ألهـو بهـا لـو دام ذاك اللهـو لـلاهى
حـرمـهـا الله وحـللتـهـا فكيف بـالعفـو من الله[٢٤٥]

ثم تأتى مرحلة التوبة الأكيدة والحقيقية ، فيندم على ذنوبه ، ويعظ نفسه بنفسه ، ولطالما أعرض عن نصح الناصحين ، ويرى أن خير ناصح للانسان نفسه ، وخير واعظ للماجن رغبته وصدقه فى تلك الرغبة ، فيقول :

لا تتناهى النفس عن غيها ما لم يكن منها لا ناه[٢٤٦]

---

(٢٤٢) ديوان أبى نواس ص ٩٧٩ تهذيب ابن عساكر جـ ٤ ص ٢٦٣ .
(٢٤٣) ديوان أبى نواس ٩٨٠ .
(٢٤٤) ديوان أبى نواس ٩٨٦ .
(٢٤٥) ديوان أبى نواس ٩٩٠ .
(٢٤٦) ديوان أبى نواس ٩٨٩ .

ويرى أن ذنوبه قد تكاثرت ، وتراكمت الذنوب على الذنوب ، ويتمنى صادقا أن يغفر الله له ، فيستغفر ربه فى قوله :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى ترادفت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن فى توباتنا فنتوب[٢٤٧]

فقد جمع الشاعر بين رغبته الصادقة ، وبين إرادة الله ، ثم يصل بشعره فى الاستغفار إلى أنضج مراحله ، حين يدعو غيره إلى الزهد ، وإلى البعد عن المجون ، وإلى طلب العفو من ربه ، وإلى الإكثار من الاستغفار ، فينشر دعوته ، بعد أن كانت قاصرة على نفسه ، فقد آمن بما يدعو إليه ، فيقول لغيره من الذين أسرفوا على أنفسهم :

مثن على نفسه ، راض بسيرتها ... كذبت يا تابع الدنيا ومولاها
أنت اللئيم الذى لن تعد همته ... إيثار دنيا إذا نادته لباها
إنى لامقت نفسى عند نخوتها ... فكيف آمن مقت الله إياها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقه ... أما تخاف من الأيام عقباها[٢٤٨]

ويقول لغيره أيضا ، وكأنما يحدث نفسه ، وقد رآها تتعثر ، فيأخذ بيدها إلى سواء السبيل :

يا سائل الله فزت بالظفر ... وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب إلى الله لا إلى بشر ... منتقل من صبا إلى كبر
وارغب إلى الله لا إلى جسد ... منتقل فى الصروف والغبر
إن الذى لا يخيب سائله ... جوهره غير جوهر البشر[٢٤٩]

ويكثر من طلب التقوى ، والقربى من الله ، والتوكل عليه ، فقد زهد فى الحياة وفى الناس ، وأصبح أكثر إيمانا وزهدا كما يبدو فى قوله :

كن مع الله يكن لك ... واتق الله لعلك
لا تكن إلا معدا ... للمنايا فكأنك
فعلى الله توكل ... وبتقواه تمسك
نحن نجرى فى تصاريـ ... ـف سكون وتحرك[٢٥٠]

---

(٢٤٧) ديوان أبى نواس ٩٧٨ .
(٢٤٨) ديوان أبى نواس ٩٨٨ .
(٢٤٩) ديوان أبى نواس ٨٢ .
(٢٥٠) ديوان أبى نواس ٩٨٤ .

ويطلب من غيره أن يستغفروا ربهم ، وإن لم يتبعوا نصحه ، فليبعدوا عنه ، ويتجنبهم ، ما داموا للنصيحة عاصين ، ولشياطينهم طائعين ، فكان مخلصا فى دعوته لغيره ، كما كان مخلصا فى تأنيب نفسه ، فيقول :

إذا لم تنه نفسك عن هواها ... وتحسن صونها فإليك عنى
فإنى قد شبعت من المعاصى ... ومن إدمانها وشبعن منى
ومن أسوأ وأقبح من لبيب ... يرى متطربا فى مثل سنى[٢٥١]

وتأتى على أبو نواس آخر مراحل الاستغفار حين يتحول إلى التسبيح بحمد الله ، ويكثر من نظمه فى مقطوعات خاصة ، لم يشرك معها موضوع آخر ، واختصها بقوالب معينة ، فى صياغة ملائمة وفى ألفاظ تكاد تقطر خفة ورشاقة ، ويظل يستغفر ربه فى شعره ، ويسبح بحمده ، ويرى أن ذنوب الإنسان لا تموت بموته ، ومن قوله فى أيامه الأخيرة :

نموت ونبلى غير أن ذنوبنا ... إذا نحن متنا لا تموت ولا تبلى
ألا رب موسى عينين لا تنفعانه ... وهل تنفع العينان من قلبه أعمى[٢٥٢]

ومن تسبيحه لربه ، ما قاله :

ول أن عينا وهتها نفسها ... يوم الحساب تميلا لم تطرف
سبحان ذى الملكوت أية ليلة ... فحصت صبيحتها بيوم الموقف
كتب الفناء على البرية ربها ... فالناس بين مقدم ومخلف[٢٥٣]

ويكثر أبو نواس من تلبياته ، وهو يسبح الملك الذى لا شريك له ، ومن عجب أن تكون هذه التلبيات ، وهو مع جنان يحج معها فقد نسمع عنه قوله فى مرحلة ما قبل توبته :

آلهنا ما أعدلك ... مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك ... لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك ... ما خاب عبد سألك
لبيك أن الحمد لك ... أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك ... لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك ... والليل لما أن حلك
والسابحات فى الفلك ... على مجارى المنسلك
كل نبى وملك ... وكل من أهل لك

---

(٢٥١) ديوان أبى نواس ٩٨٥ .
(٢٥٢) تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٢٥٣) تاريخ ابن عساكر ٢ / ٢٧٨ .

سبح أو صلى فلك لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك يا مخطئا ما أغفلك
لبيك أن الحمد لك والملك لا شريك لك[٢٥٤]

وقد روى من شاهد أبا نواس لما حج مع جنان وقد أحرم « أنه لما جن الليل جعل يلبى يشعره ، ويحدو بطرب فى صوته ، حتى اجتمع به كل من سمع »[٢٥٥] وإنما جاء ذلك فى مرحلة ما قبل توبته ، ليعبر عن استعداده ، وتصور تلك اللحظات التى كانت تمر به فى مجونه ، ويقول عيسى بن المهدى دخلت على أبى نواس وهو عليل فقلت كيف نجدك ؟ فقال كيف تجد من هو عدد فى كل يوم يبعد وينفد فاستحسنت قوله ، وقلت له هل لك فى هذا المعنى شىء فقال نعم ، وأنشد :

ينقص منى كل يوم شىء أنا مع ذلك صحيح حى
والمرء يفنيه البلا والطى وكم عسى أن يدوم العز
وآخر الداء العيا والكى[٢٥٦]

ويظل أبو نواس مستغفرا ربه فى شعره وهو على فراش مرضه الذى مات فيه ، فقد شعر بنهايته ، ورأى الفناء يدب فى أسفله وأعلاه ، وأنه يموت عضوا فعضوا ، فيتذكر ربه ، ويستغفره ، ويطمع فى عفوه ، ويأمل فى رحمته ، فيقول :

دب فى الفنا سفلا وعلوا وأرانى أموت عضوا فعضوا
ليس تأتى من ساعة بى إلا نغصتنى بمرها لى جزوا
لهف نفسى على ليالى وأيا م تناسيتهن لعبا ولهوا
ذهبت جدتى بلذة عيش وتذكرت طاعة الله نضوا
قد أسأنا كل الإساءة اللـ هم عنا غفرا وعفوا[٢٥٧]

وتذكر روايات متعددة حول آخر شعر نظمه أبو نواس ، وهو يستغفر ربه ، ومنها ما قاله الشافعى « دخلنا على أبى نواس وهو يجود بنفسه ، فقلنا له : ما أعددت لهذا اليوم ، فقال :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكرما
ولولاك لم يغو بإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما[٢٥٨]

---

(٢٥٤) تاريخ ابن عساكر ٢ / ٢٧٨ .
(٢٥٥) العقاد - الحسن بن هانىء - ٢٦٧ .
(٢٥٦) ابن عساكر ٢ / ٢٧٩ .
(٢٥٧) ابن عساكر ٢ / ٢٧٩ .
(٢٥٨) ابن عساكر ٢ / ٢٧٩ .

إن شعر الاستغفار عند أبي نواس يختلف فى بعض جوانبه ودواعيه عن شعر التوبة – عنده أيضًا – ، فقد كان أبو نواس فى بعض أشعاره فى التوبة يطيع أمرا ، ويمتثل لحكم ، وفى بعض حالاته كان ينظم فى التوبة ليثبت مقدرة فنية ، ولينافس غيره من شعراء الزهديات ، وكثيرًا ما تردد فى توبته ، وعاد عنها ، مرة وأخرى ، أما فى شعر الإستغفار ، فقد نظم فى أخريات عمره ، وقد شعر بالندم ، وكان صادقًا فى شعوره ، دون أن يجبره أحد على نظمه ، أو على أن يستغفر ربه ، كما أنه أطال وأفاض فى شعر الاستغفار ، عنه فى شعر التوبة ، وودع حياته بشعر يستغفر فيه ربه ، حتى وهو على فراش مرضه ، حتى تذكر بعض الروايات المروية عنه ، أنه فى مرضه ، كان ينظم كل يوم شعرا ، يعترف فيه بالذنب ، ويطمع فيه فى رحمة ربه ، حتى أنه نظم شعرا لعواده بعد موته .

ولم يمزج شعر الاستغفار بالمجون ، ولكنه كان يشير إلى مجونه فى المرحلة الأولى من مراحل استغفاره ، ليخلط بين التصريح بالإثم والطمع فى غفران الله ، ثم أخذ ينسى المجون تمامًا ، ويندم ويطلب الغفران ، ثم بدا موجها النصح لغيره ، ويعظهم بما آل إليه الحال ، ثم أخذ يسبح ويحمد الله ، ويستغفره ، حتى وافاه اليقين .

إن أبا نواس كان صادقًا فى مجونه ، كما كان صادقًا فى زهده ، وكانت مصادر زهده نابعة من داخله ، بعيدة عن فلسفة الفلاسفة ، ونظريات علماء الكلام ، وترجع أيضًا إلى مصادر إسلامية من قرآن وحديث .

ولقد نظم أبو نواس بعض زهدياته فى مقطوعات خاصة فى مرحلته الأخيرة من مراحل حياته ، فلم يشرك معها موضوعات أخرى ، ومن الواضح أن استغفاره فى شعره يمثل آخر مراحل حياته وآخر مراحل نظمه للشعر .

وإذا قارنا استغفار أبى نواس بغيره من الشعراء العباسيين ، نرى أن قصر الاستغفار عند ابن المعتز أخف وأقل منه عند أبى نواس ، ومرجع ذلك إلى إحساس كل منهما بخطورة مجونه ، وبعظم ذنبه ، وإحساس كل منهما أيضا بعقاب ربه ، واستعداده النفسى لهذا اليوم ، حيث تخيل كل منهما مصيره الحتمى ، حسب ما قدم فى حياته .

ومن المعروف أن ابن المعتز من مجان العصر العباسى ، وقد دفعه إلى ذلك شبابه وأسرته وظروفه الخاصة ، وربما محنته القاسية أيضًا التى نزلت به وبأسرته وأطاحت بالحكم والسيادة ، وقد أظهر زهدًا فى بعض فترات حياته ، حين أعلن توبته ، وحين رحب بالشيب ، وحين نصح الآخرين ، وحين بكى وندم ، كما استغفر ربه قليلًا .

وكان شعر الاستغفار عند ابن المعتز يصدر منه وهو فى مجونه ، أكثر مما يصدر عنه بعد توبته ، فلطالما استغفر وهو مع محبوباته ، يطلب منها الصفح الجميل ، كما كان يطلب ذلك أيضًا من غلامه صاحب المقلة الساحرة فيقول ابن المعتز :

بـــالله يـاذا المقلة الســـاحرة أغفر ذنوب الدمعة القاطرة[٢٥٩]

ومن شعر ابن المعتز فى الاستغفار قوله :

كل حى فإلى المـوت يسعى وخـطاه نـفس لا يـقـر
رب مـا عندى عـذر ولكن عنـدك اللهـم ربى غفـر[٢٦٠]

وشعر الاستغفار عند ابن المعتز قليل ونادر ، فهو من الموضوعات التى لم يهتم بها ، أو لم ينتبه إليها ، فخلا ديوانه منها . ولم تكن له مواقف خاصة به ، فى تصوير الموت أو فى تصوير القبور ، وكان ذلك حين يأتى فى شعره بذكر حادث يرتبط بأفراد أسرته ، ثم ما يلبث أن يعود إلى حاله ، بينما أجاد فى الشكوى من الدهر ، وانشغاله بما فيه أكثر من حاله ومستقبله .

ومن الشعراء الذين خافوا عذاب ربهم ، وطمعوا فى رحمته ، طالبين أن يغفر الله لهم ذنوبهم ، الشاعر « محمد بن يسير » ، الذى زهد فى مجونه ، وتاب وأقلع عن معاصيه ، فأخذ يطلب رحمة ربه ، خاشيا عذابه ، نادما على مجونه ، طامعًا فى غفران الإله ، فيقول :

ويـل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مثواه
وأغفلنا فى كل يوم مضى يـذكرنى المـوت وأنسـاه
من طال فى الدنيا به عمره وعـاش فالمـوت قصاراه
كأنه قد قيل فى مجلس قد كنت آتيه وأغشـاه
محمـد صـار إلى ربـه يـرحمنـا الله وإيـاه[٢٦١]

ويظل بعض المجان على مجونهم ، غير تائبين ، أو محاولين التوبة ، راضين بما هم فيه ، وجاءت بعض أشعارهم فى التوبة والاستغفار ، ولكنها لم تكن صادقة بأى حال من الأحوال ، ولكنها من قبيل الاستخفاف ، ومن العجيب أن يخلطوا مجونهم بذكر الرحمن وذكر بعض مشاهد يوم القيامة ، حين يؤخذ المجرمون بالنواصى والأقدام ، مثلما جاء فى شعر ربيعة الرقى « وهو ربيعة بن ثابت بن لجأ الأسدى ، وكان مولده فى مدينة الرقة على الفرات ، وكان ضريرا » ومن قوله يخلط المجون ببعض معانى الزهاد :

فـاتقى الـرحمن فينـا واحذرى يوم القصـاص
مشهـدا يؤخـذ بـالأقـ ـدام فيـه والنواصى[٢٦٢]

ويستغفر ربيعة ربه ، وهو فى مجونه ، ويذكر التوبة والصوم والصلاة ، وجاء ذلك فى غزله الذى قال فيه :

---

(٢٥٩) ديوان ابن المعتز ٣١١ .
(٢٦٠) ديوان ابن المعتز ٢٩٠ .
(٢٦١) ديوان ابن المعتز ١١٨ .
(٢٦٢) الأصفهانى - الأغانى - ١٤ / ٣٩ .

أستغفر الله قد رق الفؤاد وما ... بينى وبينك يا رقى من رحم
ما صور الله إنسانًا كصورتكم ... من بعد يوسف فى عرب ولا عجم
قالت : أعوذ بربى منك واستترت ... بغادة رخصة الأطراف كالعنم
تبنا وصمنا وصلينا لخالقنا ... ولم تتب من ذنب ولم تصم[٢٦٣]

ويسخر ربيعة من دينه ، ويعلن أنه تاب ، ولكن عن أى شىء تاب ، وما مظاهر توبته ؟ كما يذكر أنه صام وصلى واستغفر ربه ، وهى من معانى الزهاد ، التى يستخف منها الشاعر فى معرض مجونه ، ويكثر من هذا الاستخفاف والاستهتار حين يجعل الملوك يخرون ساجدين لجمال المحبوبة ، ويصورها وهى تصلى ويتمنى أن يطول سجودها سنينا ، وهو الأعمى الذى لا يرى .. فيقول :

فلما أن رآك الناس قالوا ... تعالى الله رب العالمينا
وقد أعطاك ربك فاشكريه ... جمالا فوق وصف الواصفينا
فلو أن الملوك رأوك يوما ... لخروا من جمالك ساجدينا
ولو أن النساء ملكن أمرًا ... لكنت إذن أمير المؤمنينا
إذا صليت ثم سجدت قلنا ... ألا يا ليتها سجدت سنينا[٢٦٤]

ويمثل شعر ربيعة شعر الرافض للتوبة ، والرافض للاستغفار ، ويكثر اللائمون من لومه ، ولكن دون جدوى ، وهو حين يذكر ألفاظ التوبة والاستغفار إنما يأتى ذلك فى مجونه ، مستهترا بها ومستخفا .

وكما كان هناك شعراء يستغفرون ربهم ، كان هناك مجان يمعنون فى مجونهم ، يرفضون التوبة ، ولا يفكرون فى الاستغفار ، ويعترفون بذلك ، كما يقول ربيعة الرقى :

أيها الناس ذروني ... لست من أهل الفلاح
أنا زير للغواني ... وأخو لهو وراح[٢٦٥]

إن شعر ربيعة الرقى نموذج للمجان غير التائبين ، ولكن شعره أيضا يشمل من ألفاظ الزهاد الكثير ، وفيه يقر بالخطأ ، ويعترف بالذنب ، ولكنه يصر عليه ، لا يحاول التوبة ، أو يتكلفها ، كما لم يفكر فى أن يستغفر الله عن ذنوبه . وهو موقف مناقض لمواقف الشعراء الذين أكثروا من الاستغفار وأخلصوا فى توبتهم بعد مجونهم .

---

(٢٦٣) ابن المعتز - طبقات الشعراء ١٦٧ .
(٢٦٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء ١٦٢ .
(٢٦٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء ١٦٢ .

٧ - الحكمة فى زهد المجان

تعد الحكمة آخر العناصر التى يتناولها البحث فى دراسته لعناصر زهد المجان ، وقد قالها الشعراء بعدما فرغوا من تجربتهم ، وبعد توبتهم وإظهار الخوف والهلع ، والحزن ، والندم . وقالوا أيضا بعد إعلان طمعهم فى رحمة ربهم ، وحاولوا عن طريق الحكمة أن ينقلوا تجربتهم من الذاتية إلى الشمولية ، ومن الخصوصية إلى العمومية ، فقد أضحى الشاعر ينظر إلى تجربته ، على أنها موقف مستخلص من الحياة ، وعلى أنها درس مستفاد ، وعظة مستخلصة ، وعبرة معاشة . فأراد البعض أن يعلم الآخرين دروسا نافعة ، من تجارب حية ، حتى يبدو أكثر التزاما بقضايا مجتمعه وبقضايا دينه .

وقد تفاوتت درجات الحكمة عند هذه الطائفة من الشعراء ، تفاوتهم فى الأخذ بالمجون ، وتفاوتهم فى التوبة وفى الإيمان بها . كما اشترك شعراء غير مجان فى الحكمة ، كما اشترك أيضا مجان غير تائبين فى نظم الحكمة ، كما كان للشعراء بعض الحكم فى مجونهم حكم أخلاقية ، لا تتفق مع مجونهم ، ولكن الموقف يستدعيها ، حين يمدح الماجن خليفة أو واليا ، فيرتدى ثياب الوعاظ ، ويفرز عن أقوال سديدة ، ونظرات ثاقبة عن البشر والحياة ، وأحيانا كانت حكمهم غير أخلاقية ، حين يدعون إلى نبذ الخلق ، وإلى الأخذ بأسباب المجون ، وإلى ترويج دعواهم وتحبيذها ، فكانت تصور فلسفة خاصة بالمجان وبالمجون .

والحكمة فى زهد المجان ، تنبعث من تجاربهم ، وتصدر عن رؤيتهم ، وكانت ترتبط - غالبا - بموقفهم الخاص ارتباطا جذريا ، فبدت الحكمة وكأنها تترجم عما حدث للشاعر ، وتصور محنته الخاصة ، ونظرته إلى الحياة بعد أن مر بالتجربة ، وعبر المحنة ، أو لا يزال يرسف فى أغلالها ، ويعانى من قيودها التى أرهقته وكبلته .

والحكمة تتلون بنظرة الشاعر الخاصة ، وتتأثر بتراكيبه النفسية والمزاجية ، فيطغى عليها بقدر من تفاؤله أو تشاؤمه ، القدر الذى عرف به ، كما تطبع بلون من السلبية أو الايجابية ، حسب ما يعرف الشاعر بأيها ، وقد أكثر البعض من قول الحكمة ، ومن ترديد فكرة ما ، تلح على الشاعر وتسيطر عليه ، وقد أوجز آخرون ، واتخذ فريق ثالث منها منبرا يقف عليه ليعظ وينصح ويرشد . ليثبت مقدرة فنية على النظم فى ذلك الفن من فنون الشعر .

وبدا بعضهم صادقا ، وبدا البعض الآخر متكلفا القول فيها ، كما أفرد قلة من الشعراء للحكم مقطوعات خاصة بها ، بينما جاء عند غيرهم فى خلال قصائد متناثرة ، وغير مترابطة .

ولبشار بن برد حكم كثيرة ، قالها وهو فى مجونه ، وقال بعضها حينما ادعى التوبة ، التى أجبر عليها ، وكان بشار فى حكمه غالبا مبدعا صادقا فصور الدهر المتقلب ، وصور المحن التى تفرق بين الحبيب وحبيبه ، واستخلص بعضها مما وقع له ، وكان أكثر قوله يدور حول الأخوة والصداقة ، وفى العلاقة مع الآخرين ، وفى العتاب ، واتخذ هيئة الوعاظ ، فى كثير من جوانبها ، حين أكثر منها فجاءت متتالية متلاحقة فى بعض أشعاره .

وقد أبدى بعض الحكام إعجابهم بحكمة بشار ، وقربه المهدى منه ، ثم أبعده بعدما شاع فجره ومجونه واستهتاره ، وكانت حكمة بشار تعجز البلغاء من الحكماء عن اللحاق بها - أحيانا - فنراه يدعو إلى القيم الاخلاقية ، والتمسك بها ، ومنها الحياء والصدق ، فيقول فى الحياء :

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاء
إذا لم تخش عاقبة الليالى ... ولم تستح فاصنع ما تشاء[٢٦٦]

ويقول عن الصدق :

والصدق أفضل ما حضرت به ... ولربما ضر الفتى كذبه[٢٦٧]

وفى الصدق يقول أيضا :

كم قد نشبت بغيرى ثم زغت بها ... فاستحى من كذب لا خير فى الكذب[٢٦٨]

وعن كذب الدهر يقول :

تأمن الدهر ولا ترجو لنا ... فرجا مما بنا ، ذاك الكذب
كم رأينا مثلها فى مأمن ... قلب الدهر عليه فانقلب
لا يغرنك يوم من غير ... صاح إن الدهر يغض ويهب[٢٦٩]

ومن أبرز معانى الحكمة فى شعر بشار ، حديثه عن الصديق وعتابه ، ومن ذلك أبياته المشهورة التى جاء فيها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فإنه ... مقارب ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه[٢٧٠]

---

(٢٦٦) ديوان بشار جـ ٤ ص ٢٦ .
(٢٦٧) ديوان بشار ٤ / ٢٨ .
(٢٦٨) ديوان بشار ١ / ٣٥٥ .
(٢٦٩) ديوان بشار ١ / ٣٦٥ .
(٢٧٠) ديوان بشار ١ / ١٠٠ .

ويدعو إلى حسن عتاب الصديق ، وإلى تقبل عذره ، والعفو عن إساءته ، فيقول :

ولا خير فى ود أمرىء متصنع ... بما ليس فيه ، والوداد صفاء
سأعتب خلالى وأعذر صاحبى ... بما غلبته النفس والغلواء
ومالى لا أعفو وإن كان ساءنى ... ونفسى بما تجنى يداى تساء
عتاب الفتى فى كل يوم بلية ... وتقديم أضغاث النساء عناء[٢٧١]

والأخ هو الذى يقف بجانب أخيه فى مصائبه ، وليس من يوده فى مسراته فحسب :

وليس أخى من ودنى رأى عينه ... ولكن أخى من ودنى فى المصائب
فلا تحمدن عند الاخاء مؤاخيا ... فقد يذكر الإخوان عند النوائب[٢٧٢] .

ولا يرى بشار فائدة من عتاب الجهال ، ولا فائدة فى لومهم ، فهم لا يعرفون اللوم ، فيقول :

فمن عاتب الجهال أتعب نفسه ... ومن لام من لا يعرف اللهو أفسدا[٢٧٣]

ويدعو - دوما - إلى حسن معاشرة الإخوان ، وإلى عدم جفائهم ، وقطع حبال المودة ، فيقول :

أحسن صحابتنا فإنك مدرك ... بعض اللبانة باصطناع الصاحب
وإذا جفوت قطعت حبل مودتى ... والدر يقطعه جفاء الحالب
تأتى اللئيم - وما سعى - حاجاته ... عدد الحصى ويخيب سعى الدائب[٢٧٤]

ولقد أكثر بشار من قول الحكمة ، ومن إبداء نظراته فى الحياة ، حتى أضحت بعض أقواله ، تسير مسار الأقوال السائدة ، التى يستهتر بها الآخرون كثيرا فى مواقف مماثلة ، وقد بذل بشار جهدا فنيا ، حتى يكتب لشعر الحكمة عنده نصيبا من النجاح والذيوع ، كما أنه استغل بعض أقوال مأثورة لغيره ، نجح فى استغلالها فى شعر الحكمة عنده .

وجرت الحكمة على لسان بشار ، فى قوالب متعددة ، وفى أنماط متنوعة ، منها ما يرتبط بأحداث الزمان الذى عاش فيه الشاعر ، حين تصور الحكمة علاقة الشاعر بالمجتمع ، وعلاقة الناس بعضهم بالبعض الآخر ، وقد أسهمت ثقافة بشار الخاصة ، ومجالسته المتكلمين ، وخبرته بالحياة ورؤيته الذاتية فى إمداده بعناصر ثرية من الأفكار ، التى صاغ منها حكمه .

ولم يكن بشار متطرفا فى حكمته ، ولكنه كان متطرفا فى مجونه وفى خلاعته وفى معتقداته ،

---

(٢٧١) ديوان بشار ١ / ١٥٣ .
(٢٧٢) ديوان بشار ٤ / ٢٦ .
(٢٧٣) ديوان بشار ٤ / ٥٢ .
(٢٧٤) ديوان بشار ١ / ٦٠٦ .

وبدت الحكمة معتدلة متوازنه مقبولة فى شعر بشار ، وإذا كان لبشار من جانب أخلاقى ، فإنه يبدو فى ذلك الجانب الذى أكثر فيه من نظم الحكمة .

ومن أبرز موضوعات الحكمة عنده الحث على معاملة الصديق فى حب ومودة ، وعتابه العتاب الرقيق الجميل ، وغض النظر عن خطاياه ، وقبول اعتذاره ، والصفح عنه ، والدعوة إلى العمل لإصلاح ذات البين .

وقد أكثر بشار من ترديد بعض الأقوال المأثورة التى اتخذت شكل العظات والعبر ، فجاءت فى بعض قصائده أحيانا متتالية ، متعاقبة ، تسلك مسلك الوعظ المباشر . دون ما رابط وبين تجربة الشاعر الخاصة ، ودون أن ترتبط بموقف معين يصوره الشاعر حين يخوضه ، ولكنه قال من أجل القول ، -أحيانا - بما يقوله ، وإنما قاله كى يختفى خلف قوله ، وليلفت النظر إلى الحكمة فى شعره ، وليجذب سمع الولاة والحكام ، فيرضوا عنه ، ويجزلون له فى عطاياهم ، وقد يقربونه منهم .

ومن هذا اللون قول بشار :

قد أدرك الحاجة ممنوعة ... وتولع نفس بما لا تنال
والهم ما أسكن فى الحشا ... داء وبعض الداء لا يستقال
فاحتمل الهم على عاتق ... إن لم تساعدك العلندى الجلال[٢٧٥]

ومنها قوله - أيضا :

كل امرىء نصب لحاجته ... وعليه يحمل أوله نصبه
فأربع على خلق له خطر ... فى الصالحين يفوز محتسبه
يحى الشريف يشين منصبه ... وترى الوضيع يزينه أدبه
وحراثة التقوى لمحترث ... كرم المعاد ومالـه حسبه
خذ من صديقك غير متعبه ... إن الجواد يؤدوه تعبه
يرد الحريص على متالفه ... والليث يبعث حتفه كلبه[٢٧٦]

ومن أقواله أيضا :

من يأخذ النار بأطرافه ... ينضج على النار من الماء[٢٧٧]

ومما لا شك فيه فإن الحكمة فى شعر بشار من فنونه التى لا يستهان بشأنها ، فقد كان - كما يقول الجاحظ فى بيانه : « خطيبا وصاحب فنون ومزدوج ، وله رسائل معروفة »[٢٧٨] . وكان

---

(٢٧٥) آمالى المرتضى ٢ / ١٣٧ .
(٢٧٦) ديوان بشار ١ / ٢٧٥ .
(٢٧٧) ديوان بشار ١ / ١٥٤ .
(٢٧٨) الجاحظ / البيان والتبيين ١ / ٤٩ .

بشار من المطبوعين ، وقد ساعده ذلك فى قول الحكمة ، وقد مزج الجد بالهزل ، فجاء شعره – فى بعض أحيانه – متفاوتا بين الفكر المتطرف وبين الحكمة المعتدلة ، كما كان شعره – أحيانا أيضا – متفاوتا فى جودته الفنية ، فجمع بين القصائد الغراء والقصائد المهلهلة البناء .

وتأتى الحكمة فى شعر بشار – غالبا – تسلك مسلك القدماء ، وتنهج نهجهم ، فى الإكثار من أساليب الشرط ، واستخلاص المواقف من الحياة ، واتخاذ هيئة الوعظ المباشر ، والنصح غير المرتبط أحيانا بتجربة خاصة .

وقد أكثر بشار من حكمته فى فخره بنفسه وفى مدحه الآخرين ، وفى تصوير بطولاتهم . وربما أورثته عاهته بعض هذه الحكم ، حين شعر بالتبرم من الناس ، وأحس بالنقمة عليهم – أحيانا – .

إن الحكمة فى شعر المجان من الظواهر الملفتة للنظر ، والحكمة عند الشعراء أمثال بشار ، ممن اتهموا بالزندقة ، تحوى كثيرا من القول السديد ، ومن الآراء التى يمكن الأخذ بها ، والاعتبار والاتعاظ منها ، مثلما نرى عند صالح بن عبد القدوس ، فقد أكثر من قول الحكمة ، وقد كان صالح يجلس للوعظ فى مسجد البصرة ، ويقص الأخبار ، ويقول عنه ابن المعتز فى طبقات الشعراء : « وله فى الزهد فى الدنيا والترغيب فى الجنة ، والحث على طاعة الله ، والأمر بمحاسن الأخلاق ، وتذكر الموت والقبر ، ما ليس لأحد ، وكان شعره كله أمثالا وحكما »[٢٧٩] .

وعرف عن صالح زندقته ، وإيمانه بالدين الفارسى القديم الذى يعتقد بالثنوية ، وفى أمالى المرتضى يروى أن أبا الهذيل « ناظره » ، فقاطعه ثم قال له : على أى شىء تعزم ياصالح ؟ فقال استخير الله ، وأقول بالاثنين »[٢٨٠] . ولما اشتهر أمره بالزندقة قتله المهدى بيده سنة ١٦٧ هـ « فقد ضربه بالسيف فشطره شطرين ، وعلق لبعضة أيام للناس ، ثم دفن »[٢٨١] .

وتكثر الحكمة فى شعر صالح ، وتلفت كثرتها اهتمام الجاحظ ، فيقول فى البيان والتبيين : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربرى كان مفرقا فى أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة فى الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر »[٢٨٢] .

ومن قول صالح بن عبد القدوس :

لا تـدخلن بنـميـمـة بـين العصا ولحـائها[٢٨٣]

---

(٢٧٩) ابن المعتز – طبقات الشعراء ٩٠ .

(٢٨٠) أمالى المرتضى ١ / ١٠٠ .

(٢٨١) ياقوت . معجم الأدباء جـ ٢ المجلد السادس ١٠٣٠ .

(٢٨٢) الجاحظ . البيان والتبيين ١ / ٢٠٦ .

(٢٨٣) ابن المعتز – طبقات الشعراء ٩٠ .

ومن قوله أيضا :

وأن عنـاء أن تفهم جـاهـلا ويحسب ، جهلا ، أنه منك أعلم[٢٨٤]

ويحذر صالح من معاشرة الدنىء الذى يعدى كالأجرب . وهو منافق وعقرب :

وأحذر معاشـرة الدنىء فـإنها تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
يلقـاك يحلف أنه بـك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب[٢٨٥]

ومن العجيب فإن أكثر أشعار صالح التى وصلتنا كانت فى الحكم والوصايا والأمثال ، ويرى د . هداره أن هذه الحكمة لا تتفق مع زندقته ، ويعلل ذلك فى قوله « ربما كان شعره ستارا يخفى وراءه زندقته »[٢٨٦] ويرى د . شوقى ضيف أن « اختلاف صالح إلى حلقات الوعاظ المتكلمين ، جعلت عقله يشوش بما كان يسمعه فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية »[٢٨٧] ويرى د . الشكعة أن صالح بن عبد القدوس « شاعر عاش فى خضم جماعة المجان فكان فى الطرف الآخر من تفكيرهم إذا ما صح انتفاء تهمة الزندقة التى وجهت إليه »[٢٨٨] ود . الشكعة لا ينفى عنه إتهاما - قد حاول البعض تبرئته منه - حين خدعوا بالحكم الكثيرة ، والأقوال السديدة ، والآراء الناضجة التى تضمنها شعر صالح بن عبد القدوس .

لقد كان لصالح أشعار فى الحكمة وفى الزهد وفى العفة والقناعة ، ومحاسن الأخلاق ، ما لم يستطع غيره من شعراء الزهد ، المنقطعين له ، أن يحاكوها ، وقد أوقع ذلك البعض فى الشك من معانيه من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ومن وعظ الوعاظ المسلمين ، أمثال الحسن البصرى ، وقد رأى د . شوقى ضيف فى دعوته إلى الزهد فى الدنيا الفانية « أنها دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الاسلام »[٢٨٩] ومن شعر صالح فى الحكمة أيضا :

فوحق من سمك السماء بقدرة والأرض صير للعباد مهـادا
إن المصر على الذنوب لهالك صدقت قولى أو أردت عنادا[٢٩٠]

---

(٢٨٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٩٢ .
(٢٨٥) ياقوت - معجم الأدباء ١٢ / ٨ .
(٢٨٦) د . هدارة - اتجاهات الشعر العربى ٢٥٣ .
(٢٨٧) د . شوقى ضيف ، العصر العباسى الأول ٣٩٤ .
(٢٨٨) د . الشكعة ، الشعر والشعراء فى العصر العباسى ٢١٤ .
(٢٨٩) د . شوقى ضيف . العصر العباسى الأول ٣٠٧ .
(٢٩٠) ياقوت معجم الأدباء جـ ١٢ المجلد السادس ص ٦ .

ويقول صالح عن التقوى والعفاف :

أرى عاجزا يدعى جليدا لغشمه ... ولو كلف التقوى لفلت مضاربه
وعفا يسمى عاجزا لعفافه ... ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه
وأحمق مصنوعا له فى أموره ... يسوده أخوانه وأقاربه
إذ أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومناقبه[٢٩١]

وفى معجم الأدباء شعر لصالح ، نظمه من حكم ذائعة ، عرفت له ، وجاء فيها :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا ... كاسفا باله قليل الرجاء[٢٩٢]

وبحث صالح على الوفاء ، وعدم الغدر بالصديق ، فيقول :

لا أخون الخليل فى السر حتى ... ينقل البحر فى الغرابيل نقلا[٢٩٣]

ويجسد الشاعر بعض تجاربه ، فى نظمه فيقول :

إذا وقرت امرءا فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العدو وأن إبدى مسالمة ... إذا رأى منك يوما فرصته وثبا[٢٩٤]

ومن الشعراء المجان ، الذين اشتهروا بالزندقة ، الحمادون الثلاثة : حماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد الراوية فقد كانوا « يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة »[٢٩٥] ، وللحمادين شعر ينضوى تحت إطار الحكم . والأقوال السديدة التى تدعو إلى الخلق الكريم ، كالكرم والوفاء والمودة والأخوة ، ومن ذلك قول حماد عجرد :

كم من أخ لك لست تنكره ... ما دمت دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر
يطرى الوفاء وذا الوفاء ويلـ ... ـحى الغدر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا - والدهر ذو غرر - ... دهر عليك عدا مع الدهر
فأرفض باهمال أخوة منى ... يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة ... فى العسر أما كنت واليسر[٢٩٦]

---

(٢٩١) المصدر السابق . جـ ١٢ المجلد السادس ص ٦ .
(٢٩٢) المصدر السابق . جـ ١٢ المجلد السابق ص ٦ .
(٢٩٣) ياقوت - معجم الأدباء - جـ ١٢ - المجلد السادس ص ٦ .
(٢٩٤) بهجة المجالس ٢ / ٢٦٢ .
(٢٩٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٦٩ .
(٢٩٦) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٦٨ .

وعن الكرم يقول حماد عجرد - أيضا - :

إن الكريم ليخفى عنك عسرته حتى تراه غنيا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقرا فهو محمود[٢٩٧]

إن ظاهرة انتشار الحكمة فى شعر المجان فى حاجة إلى تعليل وتبرير ، وقد اختلف الباحثون فى تبريرها وفى تعليلها ، وهى قبل كل شىء ليست فى حاجة إلى تأكيد وجود ، فما أكثرها فى شعر المجان !، وما أكثر أقوالهم التى تدعو إلى الخلق الكريم ! ، حتى فى شعر المجان غير التائبين ، ومن اليسير أن يقال أن هذه الحكم شعار يخفى الماجن خلفه فجره ومجونه ، وفى الحقيقة الماجن لا يخفى مجونه ، ولكنه يجاهر به ويصرح ، وأحيانا يفاخر بمعاصيه ، ويدعو إليها ، ويحبذها على غيرها ، ويرى السعادة فى الأخذ بها .

ولا يمكننا أن نحرم الماجن من قول الحكمة فى شعره - أحيانا - ، فقد تنتابه بعض حالات الفكر السليم ، فيطغى على مجونه ، ويطغى على استهتاره ، فيقول حكما قد يكون مؤمنا بها ، وقد يكون فى حالات أخرى من حالات التصنع والتكلف الفنى ، خاصة فى مدائحه ، ليلفت نظر الحكام ، وليضفى على قوله جزالة ورصانة وأحيانا تأتى الحكم عندهم فى شكل إجازات أو معارضات ، ليبدى الشاعر مقدرته الفنية على النظم فى موضوع ، اشترك فيه معظم شعراء الأدب العربى ، وكثيرا ما يعجب بمعنى ما ، يريد أن ينظم مثله ، وتأتى هذه الأقوال أحيانا فى غمرة مجونه ، وترتبط بالموقف الذى يمر به الشاعر ، فربما يغدر به صديق ماجن أو غير ماجن ، وربما يخونه الحبيب ويهجره إلى غيره ، وربما مرت به ضائقة فلم يجد إلى الشراب سبيلا ، فيدعو إلى الكرم وإلى الوفاء وإلى المحبة .

إن معظم هذه المضامين التى اشتمل عليها شعر الحكمة ، قد يكون للمجان رؤية خاصة بهم ، تختلف مع رؤية الزهاد ، فأحيانا يكون الكرم عندهم الكرم فى الشراب ، ويكون الوفاء فى لقاء الأحبة غير المشروع ، إلى آخر هذه المعانى التى ينظر إليها المجان - أحيانا - بمنظارهم الخاص ، ولا يأخذ الماجن موقف الواعظ إلا نادرا ، ولعل معظم حكمهم أملتها عليه المواقف التى عاش فيها ، والأشخاص الذين ارتبط بهم . وهى لا تعد ستارا عند المجان ، وقد تعد كذلك عند الزنادقة ، وعند المتهمين فى دينهم ، خشية العقاب والقتل ، فيكثروا من ادعاء الحكمة والتقوى ، ولكن أشعارهم الأخرى تؤكد ضعف يقينهم ، وسوء عقيدتهم ، وقد تكون معانى الحكمة تصلح للحالين ، فهناك أمور كثيرة يتفق فيها البشر جميعا ، على اختلاف مذاهبهم ، وعلى تنوع مشاربهم ، كالحث على الكرم والوفاء والأخوة .

---

(٢٩٧) المصدر السابق ٧٠ .

والمجان والزنادقة ، شعراء يجيدون القول ، والحكمة من فنون الشعر التى يتسابق الشعراء فى نظمها .

ونرى الشاعر أبا نواس ينظم فى الحكمة ، ولكنها لا تصل إلى مضامين التوبة والاستغفار عنده ، بعد أن أخلص فى زهده ، وقد اتهمه البعض أيضا وشكوا فى صحة عقيدته – كما مر بنا – وقيل أن له كفريات ، كما له زهديات واختلفت الآراء حول عقيدة أبى نواس ، وحول تقييمها بين الصحة والشك ، وهذا لا يمنع من كون أبى نواس حكيما فى بعض أشعاره ، فى مرحلة مجونه وفى حالة توبته ، فقد دعا فى مجونه إلى الخلق الذى يتفق وارتكابه المعصية ، فنراه يزين الأثم ، ويحبذ الفسق ، ثم تاب وزهد فنظم حكما تتفق وحالته الجديدة .

لقد جاءت الحكمة فى أقوال أبى نواس صادقة فى الحالتين ، ولم يكن أبو نواس واعظا أو ناصحا وحكيما ، ولكنه كان يعظ نفسه ويزجرها ، ويروى عن مسعود بن همام قوله : « ما رأيت أحدا أشد اعترافا بذنوبه عند موته ، ولا جزعا مما أتاه من أبى نواس ، ولقد قرأت وصيته فكانت « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به المسرف على نفسه ، المغتر بأمله ، المعترف بذنوبه ، الحسن بن هانىء ، أوصى أنه يشهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ولا حذو ولا مثيل ، وكل معبود سواه باطل »[٢٩٨] ويرى النويهى أن « أبا نواس ليس كافرا ولامتشككا » ولكنه فى المرتبة التى سموها منزلة المؤمن الصاحى والذى يسوقه إلى هذا العصيان ضعف نفسه لا ضعف إيمانه »[٢٩٩] .

ونراه فى مجونه يرفض النسك ، ويلزم الخلعاء المجان : فى قوله :

أرفض أخـوة مـن تنســك وألـزم سجيـة من فتــك[٣٠٠]

ويدعو إلى الهزل ، وتجنب الحقيقة ، والقول الجاد ، فيقول :

دع عنك ما جددا به وتبطل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل[٣٠١]

ويعترف بأنه لم يفكر فى التوبة أو فى الزهد ، ولم يخطر له النسك على بال ، فيقول :

إنى وإن كنت مـاجنا خـرقـا لا يخطر النسك لى على بال[٣٠٢]

ويرفض الحلال ، ويدعو إلى ما حرم ، فيقول :

نفسى لا ترجعى على الآثام وأرفضى الحل واقصدى للحرام[٣٠٣]

---

(٢٩٨) د . هدارة – اتجاهات الشعر ٢٥٣ .
(٢٩٩) د . النويهى – نفسية أبى نواس ١٢٣ .
(٣٠٠) ديوان أبى نواس ٩٢٥ .
(٣٠١) ديوان أبى نواس ٩٢٧ .
(٣٠٢) ديوان أبى نواس ٩٢٨ .
(٣٠٣) ديوان أبى نواس ٩٣١ .

ويشترك مع ابليس فى الغى والمجون ، طوال ليله حتى الصباح ، فى قوله :

ظللت إلى الصبح وإبليس له ... فى كل ما يؤثمنى خصم[٣٠٤]

ويجهر بالمعاصى ، ويرى أن الحياة مع الدين الضعيف ، ويتفاخر بالفسق والمجون ، وينصح بذلك ، فيقول :

أرق الدين جهراً بالمعاصى ... فإن العيش فى الدين الرقيق
وهب للناس نفسك بعد حين ... وجاهر بالتهتك والفسوق
فإنى ناصح لك فاتبعنى ... ودعنى من بينات الطريق[٣٠٥]

وفى غمرة مجونه ، تصدر منه بعض الأقوال الحكيمة ، التى يصور فيها تجاربه ، فيعجب من الأيام ، ويعتبر بالدهر ، فيقول :

إنى عجبت وفى الأيام معتبر ... والدهر يأتى بألوان الأعاجيب
لا تحمدن أمرا حتى تجربه ... ولا تذمن من غير تجريب[٣٠٦]

ويقول فى الدنيا - أيضا - :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق[٣٠٧]

وحين يقابله أبو العتاهية ، فينصحه ويزجره ، ويقول ابن عساكر فى ذلك : « قابلته فى المسجد فعذلته وقلت له : اما آن لك أن ترعوى ، اما آن لك أن تزدجر ، فرفع رأسه إلى فقال :

لن ترجع النفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر[٣٠٨]

« ولما أطلنا توبيخه وأعلمناه أننا نتخوف من صحبته فقال ويلكم والله إنى لا أعلم ما تقولون ولكن المجون يفرط على وأرجو أن أتوب فيرحمنى الله ، ثم قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فأعمد بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح[٣٠٩]

وقال الجاحظ : لا أعرف من كلام الشعراء كلاما هو أرفع ولا أحسن من « قول أبى نواس هذا »[٣١٠] .

---

(٣٠٤) ديوان أبى نواس ٩٣١ .
(٣٠٥) ديوان أبى نواس ٩٢٢ . (البنيات : الطرق الصغيرة) .
(٣٠٦) ديوان أبى نواس ٩٤١ .
(٣٠٧) تهذيب ابن عساكر ٢٥٩ .
(٣٠٨) المصدر السابق ٢٧٢ .
(٣٠٩) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٣ .
(٣١٠) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٦ .

ومن قول أبى نواس فى الحكمة :

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما العاقل من ألجم فاه بلجام[٣١١]

ومن قوله يحث على التواضع ، وينهى عن الكبر .

حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه فإنه ميسم نازعته الله
يا بؤس عظم على عظم مخرقه فيه الخروق إذا كلمته تاها[٣١٢]

وقال يعقوب بن يزيد الفارسى : رأيت أبا نواس بالبصرة فقلت له : أنشدنى فى الشيب شيئا يزجرنى ، فأنشدنى :

أيها العاقل المقيم على السهـ ـو لا عذر فى المعاد لساهى
لا بأعمالنا نطيق خلاصا يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنا على الإساءة والتفـ ـريط نرجو حسن عفو الاله[٣١٣]

وكلها أشعار لأبى نواس ، جاءت فى الحكمة ، وتدعو إلى الصالح من الأعمال ، وجاءت فى مرحلة مجونه قبل أن يتوب ويزهد .

وتبرير حكمه أبى نواس فى مرحلة مجونه ، يأخذ عللا أخرى غير تلك التى عرف بها شعر المجان الآخرين ، فإن أبا نواس كثيرا ما تمر به حالة من التوبة المؤقتة ، ولطالما مدح الخلفاء والقواد فأكثر من المعانى الرصينة ، وكان الشعراء يناظرونه فيناظرهم ، ويعارضونه فيعارضهم ، ويسألونه فيجيبهم ، فأدى ذلك كله إلى أن يكثر من قول الحكمة قبل أن يتوب ويزهد ، فجاءت فى معظم أحوالها - فى هذه المرحلة من مراحل حياة الشاعر - استجابة لموقف تلقائى ، وغالبا ما كانت تتسم بالارتجال ، وبالبداهة ولربما عدت من بدائع بدائهه ، مع أنها تدل على عبقرية فنية ، فى رصانة القول ، وجودة السبك .

أما عن أبى العتاهية ، وعن الحكمة فى شعره ، فإنها طبعت بطابع خاص ، أثر فيها مزاجه النفسى ، فغلبت عليها رؤيته التى صبغت بالشؤم وبالسلبية حين يكثر من ذكر الخراب والدمار والغدر .

ومن حكم أبى العتاهية ما قاله :

أيها البانى لهدم الليالى أبن ما شئت سوف تلقى خرابا
أيها المرء الذى قد أبى أن يهجر اللهو بها ، والشبابا

---

(٣١١) المصدر السابق ٢٧٧ .
(٣١٢) المصدر السابق ٢٧٧ .
(٣١٣) المصدر السابق ٢٧٧ .

ورأى كل قبيح جميلا ... وأبى للفتى اللارتكابا
إفش معروفك فيها ، وأكثر ... ثم لا تبغ عليهم ثوابا
وأسأل الله ، إذا خفت فقرا ... فهو يعطيك العطايا الرغابا[٣١٤]

وقوله - أيضا :

أمع الممات يطيب عيشك يا أخى ... هيهات ، ليس مع الممات يطيب[٣١٥]

ومن حكمة فى الدهر ، قوله :

إن الزمان لأهله لمؤدب ... لو كان ينجح فيهم التأديب
ولقد يكلمك الزمان بألسن ... عربية ، وأراك لست تجيب[٣١٦]

وفى الدهر يقول - أيضا :

وما الدهر يوما واحدا فى اختلافه ... وما كل أيام الفتى بسواء
وما هو إلا يوم بؤس وشدة ... ويوم السرور ، مرة ، ورخاء[٣١٧]

ويقول أبو العتاهية - أيضا :

كل ينقل فى ضيق ، وفى سعة ... وللزمان به شد وإرخاء[٣١٨]

ويجمع فى بعض حكمه بين الموت والفناء والحياة والعجز ، ويصف الدار الدنيا بالشقاء والفناء ، فقول أبو العتاهية :

الموت حق ، والدار فانية ... وكل نفس تجزى بما كسبت
من يعش يكبر ، ومن يكبر يمت ... والمنايا لا تبالى من أتت
نحن فى دار بلاء وأذى ... وشقاء ، وعناء ، وعنت
رحم الله امرأ أنصف من ... نفسه ، إذ قال خيرا ، أو سكت[٣١٩]

ويدعو إلى التمسك بفرائض الدين ، وإلى صلة الرحم ، وتواصل الأقربين ، فيقول :

أقم الصلاة لوقتها بطهورها ... ومن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت برزق ربك ، فاجعلن ... منه الأجل لأوجه الصدقات
فى الأقربين ، وفى الأباعد تارة ... إن الزكاة قرينة الصلوات[٣٢٠]

---

(٣١٤) ديوان أبى العتاهية ٥٣ .
(٣١٥) ديوان أبى العتاهية ٤٠ .
(٣١٦) المصدر السابق ٤٠ .
(٣١٧) المصدر السابق ١٢ .
(٣١٨) المصدر السابق ١٢ .
(٣١٩) ديوان أبى العتاهية ٧٣ .
(٣٢٠) ديوان أبى العتاهية ٧٩ .

ويكثر أبو العتاهية من حكمه التى تأتى على شكل النصائح والعظات المباشرة ، وفيها يدعو إلى التخلق بالأخلاق الحميدة ، وإلى الكف عن الأذى ، مصورا تجربته فى الحياة ، ومستمدا أفكاره من بعض علاقاته مع غيره ، فيقول :

وأخلاق ذى الفضل معروفة ببذل الجميل وكف الأذى
وكل طريف له لذة وكل تليد سريع البلى
وكل الفكاهات مملولة وطول التعاشر فيه القلى[٣٢١]

وعن الملل يقول أبو العتاهية :

من كل شىء يمل الفتى يمل من الشىء قد يدمنه
وأعجب من غافل والبلى تصايح فى سمعه ألسنه[٣٢٢]

ومن حكمه ، ما جاء فى قوله :

والأصل يسقى أبدا فرعه وتثمر الأكمام من مائه
من حسد الناس على مالهم تحمل الهم بأعبائه[٣٢٣]

ولأبى العتاهية الكثير من هذه الحكم ، وقد طغت على فنون شعره ، وقد اتهم أبو العتاهية بالزندقة - أيضا - ويروى ابن المعتز فى طبقاته حديثا لابن الخصيب عن اليزيدى ، جاء فيه : « ويرمى أبو العتاهية بالزندقة مع كثرة أشعاره فى الزهد والمواعظ ، وذكر الموت والحشر والنار والجنة ، والذى يصح لى أنه كان ثنويا »[٣٢٤] ، وهناك قول آخر لأبى رجاء البصرى ، يرويه ابن المعتز فى طبقاته - أيضا - يقول « كنت آتى أبا العتاهية ، فأنسخ أشعاره فى الزهد وغيرها ، وكان له بنتان ، إحداهما يقال لها بالله ، والأخرى يقال لها : لله ، وكان له ابن زاهد ناسك ، وكان مع ذلك شاعرا إلا أنه قد تخلى عن الدنيا »[٣٢٥] .

لقد اتسمت الحكمة فى شعر أبى العتاهية بالكثرة ، وبالتكرار والتتابع فى قصيدة واحدة ، ويبدو أن انقطاع أبى العتاهية لزهدياته ، واهتمامه بالاكثار من القول فيها ، حتى أضحى متخصصا ومنقطعا لها ، جعل من الحكم فى شعره أشكالا وأنماطا عديدة ، ليؤكد على بعض أفكاره التى يلح عليها ، وقد تنوعت الحكمة عنده بين الوعظ المباشر الذى يدعو فيه إلى التمسك بالصلاة وبالصوم والزكاة ، ودعوته إلى حسن الخلق من الكرم والوفاء ، كما اتخذت الحكمة عنده شكل المثل السائر .

---

(٣٢١) المصدر السابق ٢٠ .
(٣٢٢) اليزيدى - الأمالى - عالم الكتب - بيروت - ١٢٧ .
(٣٢٣) ديوان أبى العتاهية ١٥ .
(٣٢٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٢٢٨ .
(٣٢٥) ابن المعتز - المصدر السابق ٢٢٨ .

ولم تنبع الحكمة فى شعر أبى العتاهية من تجاربه الذاتية ، فى معظم أحوالها ، ولكنه استمد الكثير منها من الحياة عامة ، ولذلك فقدت الحكم عنده حرارة التجربة المعاشة ، وافتقدت إلى صدق العاطفة وإلى نقاء الوجدان ، وقد جعل أبو العتاهية من نفسه واعظا على منبر الوعاظ يعظ الآخرين ، ويلح فى وعظه !

وقد ربط أبو العتاهية فى بعض حكمه بين الحكمة والموت والقبر ، فبدت على حكمه مسحة من التشاؤم الذى غطى مساحة عريضة من زهدياته .

وهناك شعراء أخرون ، قالوا فى الحكمة ، حين تابوا عن مجونهم ، وقد ارتبطت الحكمة عندهم بمواقف خاصة فى حياتهم ، وبتجاربهم الذاتية ، ومنهم الشاعر « على بن الجهم » ، والشاعر « ديك الجن » ، والشاعر « الحمدونى » . وقد كان لكل منهم محنة خاصة به ، فقد سجن « على بن الجهم » . وقد قتل « ديك الجن » زوجته المحبوبة الجميلة بسيفه غيرة وشكا ، وعاش « الحمدونى » فى فقر مدقع ، ملك عليه نفسه ، وسد أمام عينيه أبواب الحياة . فجاءت الحكمة على ألسنة هؤلاء الشعراء ، مظهرا من مظاهر زهدهم ، وشكلا من أشكال التوبة والاعتراف .

الحكمة عند « على بن الجهم » نبعت من مآساته الذاتية ، فأخذ يدعو فيها إلى الصبر ، وإلى التحلى به ، فقد صبر صبرا جميلا ، وهو فى سجنه ، وتفاخر بتحمله ، وقوة عزيمته ، ولم يخفض رأسه أو يشعر بالذلة أو المهانة ، فنراه يخاطب المرأة فى بعض حكمه ، المرتبطة ارتباطا جذريا بتجربته ، فيقول لها :

فلا تجزعى أما رأيت قيوده فإن خلاخيل الرجال قيودها[٣٢٦]

وقد رسم عَلِىٌّ المعنى فى صورة جميلة ، جعل فيها القيود خلاخيل الرجال ، وزينة لهم ، ما داموا أبرياء ، فالحبس لا يعيبهم . وهكذا يستمر « على بن الجهم » ، يصور حبسه وقيده ، ويفخر بهما ، ليؤكد شجاعته ، ويصور نفسه ، حين جرد من لباسه بالسيف الذى جرد من غمده ، فأصبح مستعدا للطعن والقتال والانتقام من الأعداء ، الذين اتهموه ، وقيدوا حريته ، فيقول :

ما عابه أن بز عنه لباسه فالسيف أهول ما يرى مسلولا[٣٢٧]

والملاحظ فى أبيات « على بن الجهم » هذه ، أنه يجعل صدر البيت لتجربته الذاتية ، ويركز فى عجز البيت على قول يصبح مأثورا ، ويكون تذييلا للمعنى الذى عبر عنه . ويبدو الارتباط وثيقا بين تجربة الشاعر وقوله الحكيم ، وهكذا استطاع على أن يفرز حكما كثيرة وقوية وغنية ،

---

(٣٢٦) شعر على بن الجهم ٢٧٠ .

(٣٢٧) شعر على بن الجهم ٢٧٠ .

وتظهر خاصة فى الشطر الثانى من أبياته ، وإذا صح لنا أن نطلق على هذا الشطر تذييلا كما يسميه البلاغيون ، فإن الشاعر قد أجاد فى ذلك اللون إجادة فنية خالصة ، يحق لغيره أن يتمثل بقوله ، حين تتفق التجربة مع تجربة الشاعر .

ومع ذلك فقد أتى « على بن الجهم » ، ببعض حكمه فى أبيات مستقلة كاملة ، ولكنها مستقاة - بالطبع - من واقع تجربته الذاتية ، فيدعو فى بعضها إلى الصبر والتجمل ، ويترك العاقبة للغيب ، الذى لا يعلمه إلا الله - سبحانه وتعالى - فيقول على بن الجهم :

وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأفضل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته ... وغنم إذا قدمته فتعجل
وللخير أهل يسعدون بفعله ... وللناس أحوال بهم تتنقل
ولله فينا علم غيب وإنما ... يوفق منا من يشاء ويخذل[٣٢٨]

أما عن الشاعر ديك الجن ، فإن محنته معروفة ، وشعره فيها كثيرة وقد نظم ديك الجن حكما مستقاة من مصيبته الأليمة ، بعد أن ظهرت براءة زوجته ، فندم على تسرعه ، وأخذ يبكيها طيلة عمره ، واعتزل الناس حتى آخر أيامه .

وقد استمدت الحكمة فى شعر ديك الجن مصادرها من أفكار الشاعر التى أصبح مؤمنا بها ، خاصة شعوره بعدم الثقة بالآخرين ، كما أخذت الحكمة عنده - أيضا - شكل الندم والحزن ، حين تتبدد الأحلام وتضيع الآمال ، وتتغير الأحوال .

وللشاعر ديك الجن حكمه الخاصة به - أيضا - فى مرحلة مجونه قبل أن يحدث له ما حدث ، فيدعو إلى الاقبال على الشراب ، والسعى إلى المجون ، والاستمتاع بالحياة ، ومن غير المعقول أن تكون هذه الحكم نظمها الشاعر بعد محنته ، فقد حبس نفسه فى داره ، وامتنع عن لقاء الآخرين ، ومن قول « ديك الجن » قبل أن يتوب ويزهد ، داعيا إلى المجون ، فى أشعار أخذت شكل الحكمة ونمطها :

تمتع من الدنيا فإنك فانٍ ... وإنك فى أيدى الحوادث عان
ولا تنظرن اليوم لهوا إلى غد ... ومن لغد من حادث بأمان[٣٢٩]

وهى حكمة مجان ، تدعو إلى الاسراع فى تلبية دعاء المجون ، ولا خير من تأجيل مجون اليوم إلى الغد (فليس من طبع الليالى الأمان) .

وتأخذ الحكمة فى بداية محنته ، هيئة عدم الثقة بالآخرين ، وتدفع إلى الشك فى كل الغانيات

---

(٣٢٨) شعر على بن الجهم ١٦٣ .
(٣٢٩) ديوان ديك الجن ١١٧ .

الفاسقات الماجنات ، فإن التعلق بهن يقتل ، وهن لا يعرفن عهودا ولا مواثيقا ، فيقول الديك مستخلصا حكمه من تجربته :

أخا الرأى والتدبير لا تركب الهوى فإن الهوى يرديك من حيث لا تدرى
ولا تثقن بالغانيات وإن وفت وفاء الغوانى بالعهود من الغدر[٣٣٠]

ويقول - أيضا - مصورا عجزه عن تحمل خيانة الزمان .

ما لامرىء بيد الدهر الخؤون يد ولا على جلد الدنيا له جلد[٣٣١]

وفى الدهر وتقلبه - يصوغ ديك الجن بعض حكمه ، فى قوله :

فإنى رأيت الدهر يسرع بالفتى وينقله حالين يختلفان
فأما الذى يمضى فأحلام نائم وأما الذى يبقى له فأمانى[٣٣٢]

والدهر ملىء بالنوازل ، فيقول الديك :

لكن نوائبنا تبنى وحادثة والدهر مطرق بالأحداث والنوب[٣٣٣]

ولقد بدت الحكمة فى شعر ديك الجن متوزعة على مراحل ثلاث ، أولها : ما صدر منه فى حالة مجونه ، وثانيها : ما نظمه فى أول محنته ، وأخرها ما قاله فى أواخر حياته ، وأخذت كل مرحلة نصيبها الفكرى والفنى من طبيعة الحالة التى كان الشاعر يحياها ، فبعضها يدعو إلى المجون ، والبعض الآخر يدعو إلى الشك فى الغوانى ، وبعضها يدعو إلى الحكمة المستخلصة من الحياة ، والمشكلة للرؤية الخاصة بالشاعر .

ويتخذ الشاعر « الحمدونى » من فقره وسيلة ينظم بها أبياته فى الحكمة ، وجاءت الحكمة فى شعر « الحمدونى » مرتبطة بالفقر الذى عاش فى ظله ، واتخذ « الحمدونى » من قدم الطيلسان الذى أهدى له طريقا إلى الشكوى من الحياة ، والشكوى من هجر الأصدقاء ، وإلى ذم بخل الموسرين . فارتبطت الحكمة عنده بحالته ، وبطيلسانه الذى فجر القول الساخر على لسانه ، ومن ذلك قوله :

شر الأخلاء من ولى قفاه إذا كان المولى وأعطى البشر معزولا
من لم يسمن جوادا كان يركبه فى الخصب قام به فى الجدب مهزولا[٣٣٤]

ومن الشعراء المجان التائبين ، الذين نظموا فى شعر الحكمة بعد توبيتهم ، (محمد بن يسير

---

(٣٣٠) ديوان ديك الجن ١١٥ .
(٣٣١) ديوان ديك الجن ٩٦ .
(٣٣٢) ديوان ديك الجن ١١٩ .
(٣٣٣) ديوان ديك الجن ١٥٠ .
(٣٣٤) دوريات مجلة المجلة عدد ٨٧ د . القحطانى .

والسرى الرفاء والناشىء الأكبر) . فجاءت الحكمة عندهم مرتبطة بتوبتهم ، وتدل على خبرتهم بالحياة ، وتصور رؤية ناضجة امتلكها هؤلاء الشعراء .

ويروى الأصفهانى فى أغانيه بعض حكم ابن يسير ، ومنها :

تخطى النفوس مع العيا ن وقد تصيب مع المظنه
كم من مضيق فى الفضا ء ومخرج بين الأسنة[٣٣٥]

ويروى ابن المعتز فى طبقاته ، أبياتا فى حكمة ابن يسير منها :

وصاحب السوء كالداء العياء اذا ما أرفض فى الخد يجرى من هنا وهنا
يبدى ويخبر عن عوراء صاحبه ويرى عنده من صالح دفنا
فإن يكن ذا فكن عنه بمعزلة أو مات هذا فلا تشهد له حسنا[٣٣٦]

وفى يتيمة الدهر ، يروى الثعالبى أبياتا للسرى الرفاء ، تصور حكمته ، وتصور فلسفته قبل أن يتوب ، حين يدعو إلى الاستمتاع بالحياة فالحياة فانية ، فيدعو إلى الخمر وإلى النساء قائلا :

خذوا من العيش فالأيام فانية والدهر منصرف والعيش منقرض
فى حامل الكأس من بدر الدجى خلف وفى المدامة من شمس الضحى عوض[٣٣٧]

ويقول - أيضا :

فالعيش فى ظل أيام الصبا فإذا ودعت طيب الشباب الغض لم يطب[٣٣٨]

ولم ينس الشاعر وهو فى غمرة مجونه ، أن ينظر إلى الحياة ، وإلى فنائها ، وقد أكثر شعراء المجون ، من توضيح رؤيتهم للحياة ، وهم فى مجونهم ، ويدعون جميعا الى الاقبال على هذه المتع قبل نفاذها ، وإلى التزود بهذا المجون ، فالأيام قصيرة .

ويكثر « الناشىء الأكبر » من قول الحكمة بعد أن أقلع عن مجونه ، ولعل مصادر الثقافة المتنوعة التى أتيحت للناشىء الأكبر ، ولم تتح لغيره ، كانت من الدوافع التى دفعته إلى قول الحكمة ، فقد أكثر من الكتابة فضلا عن ديوان شعره ، فقد نسب إليه كثير من المؤلفات التى تدل على سعة ثقافته ، وعلى نضج فكره ، فقد كان الناشىء « يدعم الفكر الاعتزالى ، وسار فيه على نهج المعتزلة ، مدافعا عن آرائهم شعرا ونثرا ، وبقايا كتابه « الأوسط فى المقالات » أنموذج جيد من كتاباته النثرية العقائدية »[٣٣٩] والناشىء يفاخر بمعرفته علم الكلام ، وبالجدل

---

(٣٣٥) الأصفهانى - الأغانى - جـ ١٤ ص ٤٤ .
(٣٣٦) ابن المعتز : طبقات الشعراء : ص ٢٨٢ .
(٣٣٧) الثعالبى : يتيمة الدهر : جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٣٣٨) الثعالبى : يتيمة الدهر : ٢ / ٢٧٣ .
(٣٣٩) مجلة المورد - هلال ناجى العدد ٩١ الناشىء الأكبر .

الذى شهر به المعتزلة .. وعرف الناشىء أيضا بمناقضة عباقرة العلم فى عصره ، كما جاء فى أنباء الرواة أنه « ألف كتابا ينقض بها كتاب المنطق لأرسطو ، وأدخل على قواعد العروض شبها ناقضة لها ، ومثله بأمثلة غير أمثلة الخليل »[٣٤٠] .

وفى تاريخ بغداد أنه كان ينظم فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء ، حتى يقول فيه د . شوقى ضيف « أنه كان ذكياً ذكاءً حاداً وصرف ذكاءه فى مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجى »[٣٤١] .

وأجمعت معظم المصادر التاريخية والأدبية على وفاة الناشىء بمصر سنة ٢٩٣ هـ ومنها تاريخ بغداد ، والكامل فى التاريخ ، والنجوم الزاهرة ، ومروج الذهب[٣٤٢] .

ولعل الاغتراب الذى عاشه الشاعر ، والهجر الذى صادفه من الأصحاب ، وإحساسه بقرب النهاية ، وعجزه عن مواصلة الاستمتاع بشهواته ، كل ذلك دفعه إلى العزلة وإلى هجر المجون ، وإلى التوبة وإلى قول الحكمة ، ومن قول الناشىء فى الحكمة ، وفى معاملة الصديق ، وعتابه :

ولست معاتبا خلا لأنى ... رأيت العتب يغرى بالعقوق
ولو أنى أوقف لى صديقا ... على ذنب بقيت بلا صديق[٣٤٣]

وفى الصداقة والصديق يقول الناشىء - أيضا :

إنى ليهجرنى الصديق تجنيا ... فأرية أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عاتبته أعزيته ... فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا بليت بجاهل متحامل ... يجد المحال من الأمور صوابا
أوليته منى السكوت وربما ... كان السكوت على الجواب جوابا[٣٤٤]

ويحث على التحلى بالعقل ويدعو إلى الفضل وإلى اعتماد المرء على نفسه وعلى عمله ، لا على حسبه ونسبه ، حتى يصل إلى العلا ، فيقول :

تأمل بعينيك هذا الأنا ... م فكن بعض من صانه عقله
فحلية كل فتى فضله ... وقيمة كل أمرىء نبله

---

(٣٤٠) أنباء الرواة ٢ / ١٨٢ .
(٣٤١) د . شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى ٤٠٣ .
(٣٤٢) الكامل فى التاريخ ٧ / ٥٤٧ ، النجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨ ، مروج الذهب ٣ / ٤٥٣ . وتاريخ بغداد ١٠ / ٩١ .
(٣٤٣) هلال ناجى - المورد - عدد ٩١ .
(٣٤٤) هلال ناجى - المورد - عدد ٤٤ .

فـلا تتكل فى طـلاب العلى عـلى نسب ثـابت أصله[٣٤٥]

ويدعو فى حكمه إلى الأخذ بالحلال ، وإلى نبذ الحرام ، حتى يبدو صحيحا معافيا وذلك فى المرحلة التى أعقبت مجونه ، حين قال :

إذا المرء أحمى نفسه كل شهوة لصحـة أيـام تبيـد وتنفـد
فما باله لا يحتمى عن حرامها لصحة ما يبقى لـه ويخلد[٣٤٦]

ومن قوله فى الحكمة - أيضا :

من يحتمل ثقل من يأتيه معتفيا لم يتجه نحوه ذم ولم يعب
ومن علت فى اكتساب المجد همته ولم يساعد جِدٌ بات فى تعب[٣٤٧]

ويصوغ بعض أحكام سابقيه فى حكمتهم ، حين قال :

من تحـلى بغير مـا هو فيـه عاب فى يديه ما يـدعيه[٣٤٨]

ولقد ظهرت فلسفة الناشىء الأكبر فى الحياة ، من خلال أشعار الحكمة التى نظمها ، فقد أقلع عن المجون ، واعتزل الناس ، أو آثر العزلة ، واحتلت صورة الصديق وعتابه مساحة كبرى فى شعر الحكمة عنده ، وكاد ينقطع له ، فأكثر النظم فيه ، متأثرة بتجربته وبثقافته . وكان يبدو فى حكمه دائما محافظا على كرامته ، متماسكا ، متحليا بالفضل والنبل .

ولقد تناول كل شاعر من الحكمة حسب مزاجه ، وحسب حالته ، وطبقًا لرؤيته فى الحياة ، وتمشيًا مع منهجه وفلسفته فيها ، ولم يحرم من نظم الحكمة ماجن أو تائب ، وكان للمجان حكمهم الخاصة بهم ، وكان للتائبين حكمهم الخاصة بهم - أيضًا .

وقد اتخذ بعضهم من الحكمة سبيلاً إلى الوعظ المباشر ، وإلى نصح الآخرين ، وعبر بعضهم عنها فى إيجابية وفى تفاؤل ، حين تصدر الحكمة عندهم من تجاربهم ومن رغبتهم فى الإقلاع عن المجون وتعلقهم بالتوبة .

وجاءت الحكمة عند كثير من المجان التائبين مرتبطة بأنفسهم ، لا بغيرهم ، فقد انشغلوا بماضيهم ، وخافوا من مصيرهم ، وحاولوا التكفير عن ذنوبهم ، فاستغرق ذلك منهم مجهودًا فكريًا وفنيًا ، قبل أن يتخذ بعضهم من الحكمة بابا لوعظ الآخرين ، باستثناء أبى العتاهية الذى فرغ للوعظ وللنصح أكثر مما فرغ لذاته وللحديث عن نفسه ، والتكفير عن خطاياه .

فقد اشترك الزهاد بعد مجونهم فى الحكمة ، وتفاوتت درجاتها عند كل منهم ، وكان لبعضهم

---

(٣٤٥) هلال ناجى - المورد - عدد ٤٩ .
(٣٤٦) هلال ناجى - المورد - عدد ٥٤ .
(٣٤٧) هلال ناجى - المورد - عدد ٧٤ .
(٣٤٨) هلال ناجى - المورد - عدد ١٠٤ .

فى مجونه حكم ، وبعد زهده حكم أخرى ، واختلفت نوعية كل مرحلة حسب طبيعة تلك المرحلة من مجون ومن زهد .

وتعد الحكمة آخر تلك العناصر التى شكلت منها صورة الزهد عند المجان من توبة واستغفار ، وبكاء الشباب ، وحديث عن الموت ، وتصوير للقبر ، ومن وعظ ونصح ودعوة إلى الصبر وإلى القناعة وغيرها .

ومما لا شك فيه فإن هذه العناصر من أهم مضامين شعر الزهد عند المجان ، وربما كانت هناك موضوعات أخرى تحدث عنها المجان بعد توبتهم ، ولكنها لا تمثل ظاهرة عامة ، ولا تشكل تيارًا ظاهرًا ، ولا تصل إلى شيوع المضامين السابقة ذيوعها فى شعر الزهد عند المجان العباسيين .